العبور الى العباسية

وقصص أخرى

تأليف: آلن هيبرد

ترجمة: أسامة اسبر

العبور الى العباسية

وقصص أخرى

صممت الغلاف الفنانة الأميركية نورا هيبرد

التنفيذ الطباعي دار المستقبل - دمشق هـ ٢٢٢٧٩٠٥

آلن هيبرد

مجموعة قصصية

العبور الى العباسية وقصص أخرى

ترجمة: أسامة اسبر

مقدمة المترجم

يزيلُ آلن هيبرد الحدود ويفتح الأبواب ويؤكد احترامه العميق للغة وللثقافة العربيتين بنشره لكتابه القصصي الأول في اللغة العربية. كان دافعي الى ترجمة هذه القصص رغبة المؤلف في أن يفعل شيئا يعبر فيه عن احترامه وتقديره للثقافة العربية، التي شوهها الاستشراق المرتبط بالمشاريع الاستعمارية وسوء الفهم والنظرة الأحادية والآراء المسبقة. وكما قال في المقدمة، انه لا يهدف "الى تمثيل الثقافة العربية بطريقة خاصة مغرضة". انه يبحث عن عوالم وشخصيات وأحداث ليمنحها أبعادا جديدة في أبنيته القصصية. ولأن آلن هيبرد يأتي من الخارج ويرى من الخارج سيجد القارىء أنه يسلط الضوء على عوالم لا يمكن أن تلتقط بسهولة وسيكتشف تلميحات مباشرة وغير مباشرة تعبر عن آرائه في مسائل كثيرة يعيشها عالمنا العربي وسيرى أنه يبحث عن هويته عن حلمه الضائع عن - ربما وطن جديد، لأنه وكما يقول دائما عن نفسه يميل الى المنفى الطوعي ولا تعجبه الحياة في الولايات المتحدة الأمريكية.

قد يتفق القارىء أو يختلف مع قصص آلن وهذا حق مشروع له الا أنني أحتفي برغبة وقرار المؤلف في أن ينشر كتابه الأول في اللغة

العربية. انه قرار جريء وصادق ولا أرى فيه الا الحب والرغبة بالت
والدعوة الى فتح النوافذ. آمل أن تلقى هذه المجموعة اعجاب
العرب وآمل أن أكون قد وفقت في ترجمتها.

أسامة اسب

صف مصطفى عبد السلام شاحنته قرب مجموعة من الرجال. خرج منها وبدأ يتحدث معهم. وصع يديه في حزامه وحاول أن يتصرف بطريقة سلطوية قدر الامكان، وسألهم: هل تريدون عملا؟

وشعت عيون الجميع، وصرخوا: نعم. نعم. وكان كل صوت ينافس الأصوات الأخرى، يعلو وينخفض كصوت الدجاج الصاخب.

احتاج الى اثني عشر رجلا قويا وجيدا. أستطيع أن أؤمن لهم عملا وبدأ يستمتع بدوره الذي كان يلعبه خصوصا عندما شعر باليأس المتلهف للاستجابة. ستكون هناك أسرة تنامون فيها وطعام تأكلونه. وعرف أنه بهذا الكلام سيكون قادرا على ربح المتطوعين.

"أريد فقط اثني عشر اليوم. ربما أكثر غدا. من سيذهب؟"

اختار اثني عشر فلاحا من الذين يبدون أكثر جنونا (وظن أنهم جميعا يبدون مجانين قليلا) ووعد البقية أنه ان شاء الله سيعود اليهم في اليوم التالي. لديه فقط شاغر لاثني عشر شخصا في شاحنته. وأخبرهم أنهم لن يحتاجوا للمعاول والرفوش.

كان الرجال ما يزالون يتصايحون بحماس عندما توقف أمام مشفى الأمراض العقلية قال له الحارس وهو يفتح له البوابات الحديدية: آه، نعم، كنا ننتظر وصولك. وحالما دخل الى البناء الرئيسي وأعلن عن وصوله، حيا مدير المستشفى مصطفى عبد السلام، مبتسما وعانقه باندفاع وسأله عن أحوال أسرته وعن رحلته عبر المدينة.

وأجاب مصطفى، آه. كانت الحرارة مرتفعة جدا. وكما توقع، بدا أن المدير لم يلاحظ الوقت الطويل الذي استغرقه في عبور المدينة.

أخيرا الى دمشق. وأضيف الى ذلك تأثري حياة وطموحا بحياة وقصص الكاتب الأميركي بول بولز الذي عاش في العالم العربي أكثر من أربعين عاما وخاصة في المغرب.

زرت السيد بولز مرتين الى المغرب ونشر في العام الماضي كتابي النقدي الأول عن قصصه.

ان معرفتي ليست معرفة الباحث الذي درس منهجيا اللغة والثقافة العربيتين. بالأحرى، عشت ببساطة هنا ملاحظا ومتعرفا على الناس وتقاليدهم. عندما كتبت هذه القصص لم أهدف الى "تمثيل" هذه الثقافة بطريقة خاصة مغرضة. أنا أبحث عن القصص في الأشياء وينصب اهتمامي الأساسي على اكتشاف أشكال مناسبة للتعبير عن أبعاد معينة للتجربة الانسانية. فأنا أحاول في حياتي وعملي أن أحطم دائما الحدود والفروقات بين الثقافات والأديان والأجناس والايديولوجيات والطبقات هذه الأمور التي نفرق بيننا بشكل كارثي.

ان عملية كتابة القصص كما أراها ليست دقيقة ولا يمكن التنبؤ بها ولا أستطيع أن أجزم متى وكيف أعثر على قصة وغالبا ما ينتابني اليأس في أنني لن أقدر أبدا أن أكتب أي شيء آخر. غالبا ما توحي الأحاديث المسموعة بالقصص وغالبا ما توحي بها التجربة ويمكن أن تكون القصص نتاجا نقيا للمخيلة. وحالما أقرر أنني أمتلك فكرة تستحق المتابعة أبدأ بتدوين الملاحظات. من الأشياء الهامة بالنسبة لي هو أن أقرر كيف تبدأ القصة وكيف تنتهي وماهي تقنية السرد. وهذا يشبه التخطيط للقيام برحلة. وحالما أؤمن وسائل السفر وأقرر وجهته أبدأ بالانطلاق. ان الاثارة كما هو الأمر في السفر تكمن في الاكتشافات التي يقوم بها المرء طوال الطريق. أعني الأشياء التي لا نتوقع أبدا رؤيتها عندما ننطلق.

تحتوي هذه القصص التي أقدمها للقارىء العربي على أجزاء مما أريد

أن أقوله وأعبر عنه. ان وضعيتنا الانسانية تجعلنا نقصر دائما عن بلوغ الهدف وأذكر هنا سطرا لشاعر أميركي كان له دائما معنى بالنسبة لي: إن التعبير الخالص عن الحياة من خلال الفن أمر مقدر عليه ألا يحصل أبداً مع ذلك نحن نحاول باذلين مافي وسعنا منتجين ما نقدر عليه.

ان احدى المتع التامة غير المتوقعة لاقامتي في سوريا هي فرصة رؤية كتابي القصصي الأول يظهر في اللغة العربية. ولقد خطر لي أن هذه القصص ستلقى حفاوة بين القراء العرب أكثر مما ستلقاه في وطني. سنرى. ولا أستطيع أن أعبر عن شكري وامتناني لأسامة اسبر الذي كان أول من اقترح علي فكرة انتاج هذا الكتاب وعمل باتقان على استضافة هذه القصص في بيتها الجديد ـ اللغة العربية بعد أن أبديت له رغبتي في أنني أريد أن أصدر كتابي الأول في اللغة العربية. أسامة وعدد آخر من الكتاب السوريين وأذكر هنا محمد الماغوط وأحمد اسكندر سليمان وعهد فاضل علموني كثيرا من خلال حياتهم وعملهم عن تطور هوية الكاتب وعن العلاقة بين الكاتب وثقافته التي ينتمي اليها. انني أهدي كتابي هذا الى جميع الكتاب العرب الذي يصارعون من أجل صياغة شكل لغوي لرؤياهم الخاصة للعالم. انه صراع مشترك بين جميع الكتاب رغم أن الظروف يمكن أن تختلف كثيرا، ويمكن أن يواجه البعض العوائق أكثر من البعض الآخر. ففي خضم الصعوبات ينتج البعض أعمالا فنية مدهشة أما البعض الآخر من الذين تتوفر لهم أشياء كثيرة يمكن ألا ينتجوا شيئا مهما.

آلن هيبرد

دمشق آذار ١٩٩٤

العبور الى العباسية

استيقظ مصطفى عبد السلام في ذلك الصباح مسرورا جدا من نفسه. أخيرا أوكلت اليه مسؤولية خاصة من قبل مدرائه.

أخبره مديره البارحة أن مجموعة من المجانين يجب أن تنقل من المحطة في أمبابة التي تقع في الجانب الغربي من القاهرة الى المصح المركزي في العباسية الذي يقع في الجانب الآخر من المدينة.

وهو، مصطفى عبد السلام، سيقود الشاحنة المحملة بالرجال المجانين عبر المدينة. كان هذا عملا بسيطا، سيعتبره الآخرون، بدون شك، قليل الاهمية، مع ذلك شعر مصطفى بالفخر الشديد. كان الرجال الاثنا عشر خلفه، استطاع أن يشعر بثقلهم في الشاحنة حين انطلق مسرعا. ورغم الحاجز المعدني والزجاجي الذي يفصله عنهم استطاع أن يسمع أصواتهم المتقطعة والحادة والغريبة المتكررة وظن أنها مثل أصوات الطيور في الأيام الأولى للربيع، ربما ظنوا أنهم سينقلون الى مكان ما ليطلق سراحهم من الحجز. وفي الحقيقة، عندما فكر بالأمر، لم يعرف ماذا قيل لهم. كانوا في الشاحنة حين وصل، حياه مشرف المحطة

بحرارة وسأله عن أحوال أسرته وذكره بما يجب أن يفعله، وتمنى له التوفيق.

كانت الشوارع مزدحمة كالعادة في منتصف الصباح. وزحفت الشاحنة فوق جسر ٦ أكتوبر واستطاع مصطفى عبد السلام أن يشعر بارتفاع درجة الحرارة وتدفق العرق على حاجبه وشعر بأنه يتنفس بصعوبة بالغة. وما الذي كان يعول عليه سوى أن يستمر واضعا الأمل في الله؟

وبدأ ذهنه يتنقل دون اتجاه، من الأجزاء المبعثرة لذكريات الطفولة الى أوجه أولئك الذين يقودون سياراتهم ببطء الى جانبه، الى ما يذكره بالأشياء التي يجب أن يفعلها، الى أسرته التي تتألف من ولدين صغيرين وطفلة وزوجة والتي تعيش في شقة صغيرة قرب السيدة عائشة وفي الوقت الذي عبر فيه الجسر وتوجه الى الشمال الشرقي نحو محطة رمسيس، نسي بسبب تأثير الحرارة وفانتازيا الذكرى مهمته. وبدون شك، تأثر الرجال الذين يمكثون خلفه بالحرارة أيضا، كانوا صامتين، وشعر مصطفة بنوع رائع من الحرية.

وبينما كان يقودالشاحنة نظر الى الاشارات الأرضية على طول الطريق وتذكر مقهى معين قرب "عتبة" حيث كان يذهب أحيانا ويجلس مع أصدقائه. وعرف أن بعضهم سيكون هناك هذا الصباح، اذ لا يوجد شيء آخر يفعلونه. أرادوا أن يخرجوا من منازلهم وجاؤوا الى هنا ليلتقوا ويتحدثوا ويدخنوا. وبدون وعي وجد مصطفى نفسه ينحرف عن الطريق الرئيسية ويتجه نحو المقهى.

صف الشاحنة وشرح لبعض الرجال الجالسين على الكراسي امام البناء على الرصيف أنه سيغيب لمدة ساعة فقط تقريبا.

واذا حدثت أية متاعب، يمكن أن يعثر عليه في المقهى عند الزاوية.

كانوا يعرفون المكان، وكانت الشاحنة حكومية ولهذا السبب لن يزعجها رجال الشرطة. وبعد ساعة ونصف فيما بعد، بينما كان يتحدث مع أصدقائه تذكر مصطفى مهمته ربت أحد الرجال على ركبته، مازحا، حسنا، ألا يجب أن تعود الى العمل. ماذا تفعل هنا على أية حال؟ لا نشاهدك هنا كثيرا في هذا الوقت من اليوم. وهيمنت نظرة دهشة ورعب على وجه مصطفى. قفز عن كرسيه دون شرح وركض خارج المقهى، نظر أصدقاؤه الى بعضهم البعض مندهشين.

كانت الشاحنة حيث تركها. أحد الرجال الذين تحدث معهم كان يجلس كما في السابق. كان موجودا طوال الوقت ولم يزحزح عينيه عن الشاحنة وقال ان كل شيء كان على مايرام. "شكرا لك، شكرا لك، ألف شكر، قالها مصطفى بارتياح كبير. كانت الساعة الثانية عشرة والحرارة مرتفعة جدا. بامكانه دائما أن يقول ان الشوارع كانت مزدحمة جدا، وهكذا استغرقت الرحلة وقتا أطول مما كان متوقعا.

وكان مصطفى على وشك أن يصعد الى الشاحنة ويقودها حين خطرت له فكرة أن يلقي نظرة على المجانين في المؤخرة. ومشى الى مؤخرة الشاحنة عندما فتح الباب ونظر الى الداخل وجدها فارغة. وشعر حالا بثقل مضاعف في جسده وتشوش ذهنه بشكل جنوني بدزينات من السيناريوهات المروعة.

كيف يستطيع أن يشرح هذا؟ كانت هذه، غلطته.

لكنه لم يقدر على الاقرار بذلك.

أغلق الباب، هدأ نفسه والتفت ثانية الى الرجل الجالس على الرصيف. "ألم تلاحظ أي شيء غريب عندما ذهبت؟ أعني ألم تر أي شخص..؟

أجابه العجوز: ماذا؟ لا. هل فقدت شيئا؟

ربما ظن أن الشاحنة تحمل تموينا من الطحين والسكر، المطلوبين كثيرا في المدينة. وقد سرق بعضه. لا. لم أر أي شيء. وأصر على ذلك.

مصطفى عبد السلام، بدوره، لم يرغب أن يقول أي شيء وهكذا قال: معليش، صعد الى الشاحنة وانطلق. ماالذي سيفعله الآن؟ لم يكن الوقت مشكلة. يستطيع أن يقول أنه توقف ليأكل شيئا، بالاضافة الى ذلك، لا أحد يتوقع أن تنجز الأشياء بسرعة كبيرة في القاهرة، وبالتدريج بدأت خطة تتشكل في ذهنه. كل ما كان عليه أن يفعله هو أن ينقل اثني عشر مجنونا، ولم تكن توجد قائمة بالأسماء وما يجب أن يفعله الآن هو أن يقنع اثني عشر رجلا بالصعود الى شاحنته. لن يكون هذا صعبا. اذا لم يكن في القاهرة شيء، فعلى الأقل فيها كثير من البشر، وتخيل عددا كبيرا من الناس لم يركبوا شاحنة طوال حياتهم.

ربما يستطيع فقط أن يصف شاحنته قرب أحد الأحياء المكتظة بالسكان في المدينة ويسأل اذا كان أي شخص يرغب في نزهة.

وفي هذه الأثناء كان يتجه نحو منطقة في المدينة حيث يتم فيها الكثير من عمليات البناء. رأى مجموعة من الفلاحين الفقراء الذين جاؤوا الى القاهرة آملين في العثور على عمل جالسين على الأرصفة تغطي رؤوسهم وأجسادهم الشملات والعباءات الرمادية الطويلة ويحملون رفوشا ومعاول.

صف مصطفى عبد السلام شاحنته قرب مجموعة من الرجال. خرج منها وبدأ يتحدث معهم. وضع يديه في حزامه وحاول أن يتصرف بطريقة سلطوية قدر الامكان، وسألهم: هل تريدون عملا؟

وشعت عيون الجميع، وصرخوا: نعم. نعم. وكان كل صوت ينافس الأصوات الأخرى، يعلو وينخفض كصوت الدجاج الصاخب.

احتاج الى اثني عشر رجلا قويا وجيدا. أستطيع أن أؤمن لهم عملا وبدأ يستمتع بدوره الذي كان يلعبه خصوصا عندما شعر باليأس المتلهف للاستجابة. ستكون هناك أسرة تنامون فيها وطعام تأكلونه. وعرف أنه بهذا الكلام سيكون قادرا على ربح المتطوعين.

"أريد فقط اثني عشر اليوم. ربما أكثر غدا. من سيذهب؟"

اختار اثني عشر فلاحا من الذين يبدون أكثر جنونا (وظن أنهم جميعا يبدون مجانين قليلا) ووعد البقية أنه ان شاء الله سيعود اليهم في اليوم التالي. لديه فقط شاغر لاثني عشر شخصا في شاحنته. وأخبرهم أنهم لن يحتاجوا للمعاول والرفوش.

كان الرجال ما يزالون يتصايحون بحماس عندما توقف أمام مشفى الأمراض العقلية قال له الحارس وهو يفتح له البوابات الحديدية: آه، نعم، كنا ننتظر وصولك. وحالما دخل الى البناء الرئيسي وأعلن عن وصوله، حيا مدير المستشفى مصطفى عبد السلام، مبتسما وعانقه باندفاع وسأله عن أحوال أسرته وعن رحلته عبر المدينة.

وأجاب مصطفى، آه. كانت الحرارة مرتفعة جدا. وكما توقع، بدا أن المدير لم يلاحظ الوقت الطويل الذي استغرقه في عبور المدينة.

الساعة الآن هي الثانية والنصف وهو غادر "امبابا" في العاشرة "توقفت من أجل الغذاء وصليت وكان الازدحام كريها. وكانت المواصلات كريهة".

"نعم، نعم الحمد لله، ان ازدحام المواصلات يزداد سوءا كل يوم. أليس كذلك؟ لكن أنت الآن هنا ومعك الرجال"

آه، نعم، معي الرجال. جميعهم هنا، الاثنا عشر كلهم. وهم مجانين كجهنم. كنت أصغي اليهم وهم يصرخون ويتصايحون عبر المدينة ظننت أحيانا أنني سأفقد عقلي. أنا سعيد بتسليمهم اليك".

أصدر المدير أمرا بنقل الرجال من الشاحنة الى غرفة قريبة حيث سيتم فحصهم. راقب مصطفى، الرجال مندهشا قليلا، عندما خرجوا واحدا واحدا من الشاحنة. وبدأوا يتفحصون المكان الجديد. نفذوا الأوامر ولم يقاوم أحد. منهم حاول مصطفى أيضا أن يخمن ردة فعل موظفي المستشفى، عندما قادوا الرجال الى البناء. لا أحد بدا أنه لاحظ الفرق.

قال مصطفى للمدير: حسنا، تأخر الوقت.

ألن نشرب شايا؟

وافق مصطفى وجلسا سوية ليتحدثا عن الحياة، وعن وظيفتيهما، عن أسرتيهما وعن حالة البلاد. أثناء حديثهما سمعا صرخات حادة وأصواتا مرتفعة في الجو.

- آه، الرفاق الجدد.

- بالطبع يقاومون

ـ لكن بدوا مطيعين أثناء خروجهم. ماذا فعلت بهم؟

ـ أخبرتهم أنني سأمنحهم عملا.

ـ آه، هذا ذكاء حاد منك.

تعالى ضحكهما للحظة أو لحظتين فوق الأنين والصرخات.

- اجازة -

أدار سيف الدين فترة طويلة سجن بلدة تقع على الشاطىء الشرقي للمتوسط دون أن يكون هناك أدنى تساؤل حول ادارته. كان سيف الدين يحظى بتقدير خاص في المنطقة وكان يعتقد أنه نموذج يحتذى به لجميع آمري السجون. وحالما كان يطلق سراح السجناء بعد نهاية الأحكام الصادرة بحقهم، كانوا يتكيفون بسهولة مع حياة الجماعة فيمارسون مهنة المحاماة أو التدريس أو يؤدون خدمة اجتماعية أخرى. ولم يحاول أحد أن يكتشف سر نجاحه قط اذ أن الجميع كانوا يخشونه.

كان أول ما يفعله سيف الدين حين يصل سجين جديد هو أن يستدعيه الى محادثة وهو يرتدي ثياب السجن جالسا على الكرسي الوحيدة التي تواجه مكتبه. وكما هو محدد يجيء السجين ولدى دخوله الى المكتب ينظر حوله متضايقا ومتسائلا أين سيجلس. عندها يشير سيف الدين الى الكرسي الضخمة الموسدة خلف مكتبه قائلا، تفضل بالجلوس.

- ولكن، أليست هذه كرسي المدير؟

- بالضبط! لكن أنا المدير وأنا أقدم لك الكرسي. أهلا وسهلا. اجلس الآن وأخبرني عن نفسك ولماذا أنت هنا. سميرا. أحضر لـ... لم أعرف اسمك. غالب؟ أحضر لغالب... ماذا تحب أن تشرب.. شايا أم قهوة؟.. كأسا من الشاي بملعقتين من السكر. هل تحب أن تدخن سيجارة؟ هل جردوك من تبغك حين دخلت هنا؟ لا تقلق.. وثيابك.. كيف تحب أن تكون ثيابك الجديدة.. سنخلصك من هذه حالا..

أنا أيضا لا أحبها. أرتديها فقط في مناسبات خاصة حين أرحب بالوافدين الجدد.

لم يفشل هذا الأداء المدهش أبدا في صدم واذهال السجناء الجدد. وكانوا يسألون أنفسهم، هل هذا الرجل مجنون؟ كان استثنائيا على أية حال وممتعا.

هذا الاستقبال غير المألوف والراحة في الجلوس والتدخين وشرب الشاي جعل السجناء وتحت الحاح المدير يقصون حكاياتهم. وكما عرف اعتقل معظمهم بسبب نشر أفكار خطيرة والبعض الآخر قاموا بقتل شخص ما في نوبة مبررة من الانفعال. وقبض على آخرين متلبسين بالسرقة حين لم يقدروا على تحمل جوع أبنائهم. وشعر سيف الدين أن هؤلاء الأشخاص متألقون فكريا، شرفاء ورحماء أكثر من معظم الذين عليه أن يتعامل معهم في العالم الخارجي. وبدأ يفكر بهم كأصدقاء.

ودون أن يستشير أحدا قام سيف الدين بعدد من الابتكارات. وبما أنه يؤمن بقوة بأن الفضاء الهندسي للسجن والبيئة لهما تأثير خطير

على الحالة الانسانية قام وبمساعدة السجناء بازاحة القضبان وهدم الجدران ووضع ستائر على النوافذ وفرش الأرض بالسجاد والمخدات ثم أحضروا النراجيل وطاولات الشيش بيش وحسنوا تجهيزات المطبخ.

وبعد أن استشف الموهبة في هذا الوسط بدأ المدير بتدريس الرجال وكانت طريقته المعتمدة هي طريقة المدرسة القديمة أو المدرسة الاسلامية حيث كان المدرس يعرف تلاميذه عن قرب ويشجعهم على طرح الأسئلة وتطوير أذهانهم.

وضع مكتبة وأسس مجلة أدبية تدعى ألف، حيث كان بوسع أي شخص أن ينشر القصائد والقصص ويعبر عن نفسه بحرية وفي أي موضوع. وازدهر مجتمع صغير وحيوي داخل جدران السجن. شجعت صناعة الفخار والنجارة ونفخ الزجاج واستخدمت أرباح المبيعات في شراء الكتب والمواد التموينية. وقسم النزلاء أو المواطنون كما كان يشير اليهم سيف الدين الى فرق وقاموا بمباريات كرة القدم التي كانت شعبية جدا. وغالبا ماكان السجناء يشكون من فقدان النساء والأطفال غير أنهم وجدوا في رفقة بعضهم البعض وسائل رحبة لارضاء حاجاتهم ورغباتهم.

كانت تقام حفلة كبيرة حالما يطلق سراح سجين وكأن هذا الشخص ذاهب في رحلة طويلة. كان الجميع يسكرون ويرقصون رقصة تقليدية على العود والناي ويكثر الضم والتقبيل والصراخ. وما يمكن أن نتوقعه سببا للبهجة غالبا ماكان مناسبة حزينة لأن السجناء كانوا عموما مترددين في المغادرة. وكما كانوا يقولون غالبا، البلاد كلها

سجن واحد كبير. كانوا مرغمين على البقاء وراء جدرانه لأنهم غير قادرين على الحصول على جوازات سفر أو تأشيرات خروج. واذا كتب لهم الحظ أن يحصلوا على عمل فلن تكفي الرواتب لسد حاجاتهم. وعلى الأقل كان يمكن توقع درجة معينة من الجهد داخل السجن.

كان سيف الدين العقل السيد والمهندس المدبر لهذا المجتمع الممين. كان جميع الرجال يحترمونه وكأنه والدهم المثالي. كان يحظى بالاخلاص من الآخرين عن طريق الاهتمام بكل حاجات السجناء متذكرا أعياد ميلادهم ومشاركا في أحزانهم. وكان يقول بطريقة نصف ساخرة: اذا سببتم أية متاعب فسوف نزج بكم في السجن.

كان سيف الدين أحيانا يلقي محاضرات تتضمن خليطا منتخبا من الأحاديث الدينية والقومية العربية وسياسة المعارضة وكان يحب رواية قصص الأبطال العرب القدماء أثناء الحملة الصليبية وكان أعظمهم بدون شك صلاح الدين وكان يشير من خلال المقارنة الى أن سلاطين اليوم جبناء وفاسدون وطغاة ويجب أن يدفع معظمهم ثمن أفعالهم الخيانية وذلك بأن يخدموا خلف الأسلاك الشائكة والجدران.

كان أحد ابتكارات سيف الدين برنامج لمنح الاجازات وكان غير رسمي بالطبع. وكان يعرف أنه اذا عرض الفكرة على رؤسائه فسوف يسخرون منها أو ترمى بلا مبالاة أو ترفض بشدة. وهكذا نفذ البرنامج دون أن يسأل أحدا لأنه اعتقد أنه فكرة جيدة وكان قد رأى كثيرا من الأفكار الجيدة تذوي وتموت لأنها لم تحظ بادارة شجاعة.

رتب البرنامج تناوبيا. في كل أسبوع كان برسل أحد الرجال لقضاء

عطلة نهاية الاسبوع. وكان سيف الدين يحذره، اذا لم تعد سوف أسرح من الخدمة. وكان الجميع يعودون دون اهمال. ولم تحدث متاعب الى أن جاء دور جهاد لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وجهاد الذي روى قصصا كثيرة مختلفة عن سبب ارساله الى السجن الى درجة أنه لم يعرف أحد ماذا يصدق اختار أن يذهب الى المحافظة لقضاء بعض الأيام مخططا أن يعود في الموعد المحدد. وفي اليوم الثاني لخروجه حدث فيما كان جهاد يتناول الغداء في مطعم في المدينة - أن اندفع الى الداخل شاب مقطوع النفس يبدو عليه القلق الشديد.

عرف جهاد النظرة، هو أيضا طورد مرة من قبل السلطات. ونظر الشاب حوله باحثا عن ملاذ. مرحبا..! أنت هناك... تفضل بالجلوس. قال داعيا الغريب أن يجلس على كرسي قبالته الى الطاولة. مرحبا بك! لا تقلق. مهما كانت مشكلتك فالمسألة ليست مهمة. أنا أيضا خارج عن القانون. في الحقيقة أنا خارج السجن الآن للقيام بزيارة قصيرة. أراحت الكلمات الشاب للحظة صارفة انتباهه عن مشاكله الخاصة. جلس الغريب ودعاه جهاد متبعا العادة وميل قلبه الى اقتسام وجبته معه. وبعد أن قال بسم الله شارك الرجل متلهفا جهاد الخبز والفول الموجودين أمامه. كان جائعا بشكل واضح. وخطر لجهاد أنه لم ير أبدا شخصا جائعا كهذا منذ أن كان في العالم الخارجي للمرة الأخيرة. كان هناك دائما الكثير من الطعام في السجن. وكانت توجد حدائق تحظى بعناية جيدة وحيوانات صغيرة حيث كان عمل جهاد هو العناية بالصيصان.

وما أن أكل الغريب دزينة من اللقمات حتى لمح جهاد رجلين يرتديان اللباس الحكومي يدخلان الى المطعم من الباب المواجه له.

اقترب رجلا الشرطة بعدوانية من الطاولة. تعرف أحدهما على جهاد لأنه كان له علاقة باعتقاله. وسأل رجل الشرطة بخشونة: ماذا تفعل هنا؟ أليس من المفترض أن تكون في السجن؟ أجاب جهاد باحترام دون أن يخطر له تلفيق قصة: حسنا! نعم ياسيدي، سوف أعود حالا. منحني المدير اجازة.

- قصة طريفة! أيها الوغد الكاذب. لا تستحق شيئا سوى السجن. التفت الضابطان بعد ذلك الى الغريب الذي كان يجلس بهدوء مرتعشا محاولا ألا يلفت الانتباه. لكنهما تعرفا على طريدتهما ثم قبضا على الرجل بخشونة ورمياه أرضا ورفساه عدة مرات على ظهره ووجهه. وبعد ذلك جرا كلا من جهاد والرجل المضروب الى سيارة الجيب المنتظرة وأخذاهما الى سجن سيف الدين. ولدى وصولهم طلب الشرطيان مقابلة المدير وعندما دخل الشرطيان والمجرمان الى المكتب وجدوا المدير ينظر نظرة سلطوية قدر الامكان جالسا خلف المكتب، مرتديا كما ينبغي أن يلبس مدير سجن. ولدى رؤيته لجهاد استشف المدير حدوث متاعب. الا أنه قرر بحكمة أن يحبس لسانه الى أن يعرف أكثر عن القصة. وقال أحد الضابطين مشيرا الى جهاد: أعتقد أنك تعرف هذا الشخص.

أجاب المدير: وجهه يبدو مألوفا.

- عثرنا عليه في مطعم يأكل الفول مع هذا المجرم الذي كان ينشر أفكارا خطيرة. رجلك ذكي. قال انك منحته اجازة.

جلس سيف الدين بهدوء يفتل شاربيه. وبعد لحظة قال: "لا تستعجل الحكم. لقد أخبرك بالحقيقة".

نظر رجلا الشرطة الى المدير باستغراب وكانت تعابير وجهيهما تطلب شرحا.

- "هذا صحيح. لقد أطلقته. سمعت أنكم تبحثون عن هذا الرجل وعرفت أنه صديق لجهاد وهكذا استدعيت جهاد وأرشدته أن يذهب الى المطعم حيث عثرتم عليه لأنني شككت أن الرجل الذي تبحثان عنه سوف يأتي الى هناك الى أن تأتي السلطات. حاولت أن أتصل بكم لأخبركم بالخطة لكنكم تعرفون كم هي الاتصالات سيئة في هذا البلد. حتى انني وقسما بحياتي لم أسمع طنين الهاتف على أية حال أنا مسرور أن الأمور تمت بشكل جيد، أي أن جهاد عاد الى حيث ينتمي وهذا الرجل الوغد الخائن الذي لا يصلح لشيء هو الآن خلف القضبان". وبالفعل قيم السجين الجديد واعتبره مشروعا رائعا لبرنامجه الثوري.

دهش رجلا الشرطة من براعة سيف الدين وهنأه على خطته الرائعة. تأثر جهاد والسجين بدورهما بسرعة بديهة المدير وكانوا ممتنين له لأنه حماهما.

وحالما وصلت قصة سيف الدين الى المجموعة ربح المزيد من الاحترام. ولم تسأل أية أسئلة أبدا. أما رجال السلطة فأثنوا عليه لأنه يتمسك بقيم الدولة بحماس وينفذ عمله في معاقبة أعدائها بجدية. أما الذين عرفوا الحقيقة فقد بدأوا بالبحث عن طريقة تربحهم مكانا تحت وصاية سيف الدين. وبالتدريج تورط عدد كبير من الناس في نشر أفكار خطيرة آملين أيضا أن يصبحوا يوما ما جزءا من مجتمع سيف الدين الأسطوري.

تاركا الأهرامات خلفه

بقي شخص عمر بدوي في محيط ذاكرتي الى أن جاءت فرصة أن يعرف أحد ما ما حدث له. كان ذلك في احدى الأمسيات وفي حفلة عشاء صغيرة في "تشابل هل" شمال كاروليا حين ذكرت اسمه لأنتهز هذه الفرصة. كان يوجد أشخاص لهم علاقات بالشرق الأوسط، منطقة حيث الروابط الانسانية والوشائج هي مثل خطوط في الأرابيسك تتقارب وتتلاقى وتتقاطع وتتلاشى وتدور في نماذج بهيجة دائما، خالقة توترا بين النظام والفوضى، بين المضمون والامكانية اللانهائية.

وكنا، عند هذا الوقت من المساء قد خرجنا من غرفة الطعام الى غرفة الجلوس لنشرب القهوة العربية حول مائدة منخفضة. عمر البدوي؟ سأل أحد الضيوف وهو عالم نميات مختص بالنقود التي صكت في المرحلة الفاطمية، لا لكي يخون التعرف بل ليوحي بامكانية قصة. وتابع سائلا، هل تعرف عمر؟ قلت للمجموعة ان عمر كان أحد طلابي في القاهرة، وكان والحق يقال أحد الطلاب المتفوقين في قسم اللغة الانكليزية والأدب المقارن. جميع الأساتذة الذين درسوا عمر، بما فيهم أنا، عرفوا فيه صفات استثنائية ومدحوه كثيرا. وحين اقترب

موعد تخرجه كان من الطبيعي أن نسأله عن خططه وحين كان يتردد كنا نسرع ونؤكد له أنه لن يحصل أبدا على ما يحتاجه في مصر ونقترح عليه أن يذهب الى جامعة ممتازة في انكلترة أو أميركا. كان مترددا بشكل واضح كان حبل سرته ما يزال مربوطا الى مصر، أم الدنيا.

بينما كنت ما أزال في القاهرة تم التحدث عن جامعة في شمال كارولينا بأنها مكان ملائم لعمر خصوصا بما أن أحد أصدقائي كان لديه صديق يدرس هناك والذي يمكن أن تتم الترتيبات من خلاله. بهذه الطريقة تنجز الأشياء في الشرق الأوسط. وبدون شك ما حثني على ذكر اسمه هو تذكري لتلك الامكانية.

عندما تحدثت عن عمر شعرت بقوة الروابط الانسانية بيني وبينه. لم أقابل معظم هؤلاء الأشخاص الا في هذه الحفلة. كانوا يعرفون عمر وكنت أعرفه قبلهم وهكذا فنحن جميعا تجمعنا علاقة ببعضنا. وهذا ما ولد الشعور بالراحة بيننا...

وبدأ الأصدقاء الضيوف يخبرونني شيئا فشيئا قصة عمر في أميركا. وحالا توضح أن كل شخص يعرف جزءا أو آخر من القصة. وبشكل جماعي بدأوا يركبون أجزاء القصة منتجين ترجمة أكثر غنى أو زخرفة مما سيقدر عليه أي منهم اذا روى القصة بمفرده. أمام وخلف الطاولة بدأت تحاك خيوط السرد، صوت يضيف لونا وآخر يمد خيطا وآخر يجعل التعريف أكثر حدة. تكلم الجميع وبزغ نموذج القصة.

وكما عرفت من معارفه المقربين في الجامعة وجد عمر طريقه الى تشابل هل. كان أحد الحاضرين يدعى عدي الحسيني وهو ناقد

أدبي فلسطيني فذ وقد قال انه كان صديق زميلي القاهري وأخبرني كيف رتب ادخال عمر الى برنامج التخرج في الأدب المقارن. كان قد وصل قبل سنة تقريبا في وقت بداية العام الدراسي. وتابع قائلا: ليس بوسعكم أن تتخيلوا الصعوبات التي عانيتها في اقناع أعضاء اللجنة الآخرين بأن مصريا كان قادرا على تحدث الانكليزية بطلاقة. كلهم عبروا عن تحفظات جدية حول أجنبي سيعلم الطلاب الأميركان كيف يكتبون بشكل مناسب. قاطعت الحديث قائلا: أراهن على أن انكليزيته جيدة مثل نصف مساعدينا من المدرسين الحاليين على الأقل. لقد رأيت الأخطاء النحوية الأكثر سوءا في حلقات بحثي لهذا العام.

"على أية حال طوي الطلب وحول الى معيد وكان علي أن أذهب الى قسم الشرق الأدنى واللغويات الشرقية لأحصل له على منصب. لم أعتقد أنه كان سعيدا بهذا. لم يكن هذا ما أراد القيام به الا أنهم ظنوا أنه ربي على اللغة العربية وهذا سيمكنه من تعليمها. أنا متأكد أنه قام بعمل جيد - كما فعل في كل شيء - الا أن هذا لم يكن ملائما له. ولا أظن أبدا أنه شعر بأنه مناسب هنا.

أضاف محمد وهو طالب عربي قضى في الولايات المتحدة بعض الوقت وكان على ما يبدو متكيفا بشكل جيد مع المكان وثقافته: أعرف أنه لم يكن مثل الطلاب العرب الآخرين. غالبا ماكنا نأتي لزيارته ولنلطف مزاجه طالبين منه أن يخرج معنا، الا أنه كان عادة يفضل أن يبقى وحده ويدرس. وحين ننجح في اقناعه بالخروج معنا كان يذهب مترددا ويبقى هادئا ومحافظا طوال المساء بينما البقية منا يتحدثون العربية ويروون النكات بصخب، يضحكون، يربتون على ركب بعضهم... الخ. كنا نقضي الوقت في المقاهي وكنا نمزح أحيانا مع عمر

حول غياب حس الفكاهة لديه. بعد كل شيء، ألم يكن الحس المصري الأسطوري بالفكاهة العجيبة الثامنة في العالم؟

انسجم هذا الوصف لعمر بدقة مع تذكري الخاص له في القاهرة. غالبا ماكان يهرب من الحشد ويجلس على كرسي مصنوع من الأماليد المجدولة تحت شجرة النخيل في حديقة الجامعة يتحدث مع بعض الطلاب الآخرين من قسم الأدب وبخاصة مع الفتيات لأنه وكما قال لي مرة كان الذكر الوحيد في برنامج ما قبل التخرج. كانت مؤثرة وحماسية معرفته بالغرب، بشوبنهاور وبروست وهايدجر وفرجينيا وولف - وخفت بأن يهدد هذا بقطع صلته القوية مع ثقافته. كان اغراء الغرب قويا ورأيت كثيرين يستسلمون لهذا الاغراء.

وأكدت مضيفتنا وهي امرأة أمريكية مليئة بالحيوية قضت وقتا طويلا في الشرق الأوسط وفي القاهرة، ربما كان يحن الى بلاده. كان يفتقد القاهرة. أعرف أن هذا صعب التصديق، لكن أنتم تعرفون حين تبتعدون عن المكان وتنسون الاعتداء المستمر على الحواس، الضجة، الشجارات، الهواء الملوث، النظرات الشبقة، ستفتقدون الأسواق، أيام الخريف الرائعة، المواقف السعيدة، حتى الأذان، فاذا كانت بلادكم ستكون الأمور هكذا... فكروا بتشابل هل. يمكن أن يكون هذا المكان مستنقعا أحيانا. مثل هذه الأيام. لا أفهم كيف يعيش الجميع هنا. أفهم ماكان يشعر به.

وعند هذه النقطة، كانت أصوات متنوعة ترن واحدا بعد آخر صانعة خلفية القصة، وبدا لي بما أنهم يعرفون القصة مسبقا كان بامكانهم انهاء الموضوع ومناقشة أشياء أخرى، لو أنني أنا اللا منتمي لم أطلب

منهم الاستمرار. حسنا! ما الذي حدث لعمر؟ أين هو الآن؟ أظن أنه ليس هنا. استجاب الدكتور حسيني قائلا: لا، لقد عاد الى القاهرة كما سمعت ولا أعلم ان كان سيرجع أم لا. لا أعرف ما الذي سيفعله. كان هناك ذكر لعشيقته في مصر. ولكن لا أعرف شيئا الآن عن المسألة.

أقحم محمد نفسه قائلا: أظن أن هذا شيء رتبه والداه. لدي شعور أن الأمر لم ينجح. بدا مغتما ولم يتحدث أبدا. لكن لا أعرف يجب ألا أقول".

في هذه المرة أخذ شخص آخر دوري في نسج القصة. التفتت مضيفتنا الى محمد وسألت، كنت معه في تلك الليلة، أليس كذلك؟ كان الأمر مرعبا بالنسبة له. لا أقدر أن أتخيل كيف أثر عليه؟ انه شخص جيد. وشعرت الآن بلفتة متميزة نحو جوهر القصة. كنت أنتظر سماعها.

أعطت محمد معرفته أكثر من الآخرين بعمر تفردا جعلهم يجلسون ويستمعون بينما كان يروي كيف ذهب في احدى الأمسيات ليزور الشاب المصري ويدعوه الى الخروج من أجل التسلية. "كان عمر كئيبا أكثر من المعتاد ووافق على الذهاب بعد أن طلبت ذلك منه عدة مرات. "هيا يا عمر، يجب أن تخرج من غرفتك، لقد أصبحت أميركيا، وكان هذا كفيلا باقناعه ولم يبق شيء عن ذلك المساء في ذهني. أذكر أنه كان لدى عمر أوراق ليصححها، شيء ما ليقرأه، امتحان في اليوم التالي، شيء من هذا القبيل. وهكذا ذهب الى غرفته دون أي شك. لم أعرف أبدا بقية القصة. حين عاد الى شقته، كانت الشرطة هناك وسيارة اسعاف.

وتعجبت مضيفتنا: يا الهي! هل يمكنكم أن تتخيلوا هذا؟ لابد أنه تلقى صدمة مريعة. أشك إذا كان لعمر أدنى اتصال بالشرطة الأميركية التي ليست مثل الشرطة المصرية التي تتجول ببنادقها.

ما الذي خطر في ذهنه؟ وقال عالم النميات متجهما وفي حالة لا تقاوم من الفكاهة السوداء كما خمنت من ردة فعل المجموعة: "كان محظوظا أن لا شيء خطر في ذهنه". تابع محمد: كان وحيدا في بلاد أجنبية وهي ليست دائما بلادا محبة. آسف على هذا القول. كان يقف مع رجال الشرطة ذوي الوجوه العنيدة والقوية ولا يعرف ما الذي حدث. ربما على الأرجح صعد الدرج الى غرفته وعثر على رجال الشرطة هناك. ربما أخبروه عندئذ عن اطلاق النار وعن الموت. هذا كل ما عرفوه عن الأمر، خصومة بين عاشقين أو شيء ما حدث خارج باب شقته. لا تعرف أبدا في هذه البلاد ما يجري عند الباب التالي، من المفترض ألا يكون هذا من شغلك على أية حال. كانت الأرضية الاسمنتية مصبوغة بالدم، كما أخبرني فيما بعد وكان هناك طلقة ثقبت الباب. لا أعرف ماذا أخبروه أو اذا حاولوا تهدئته أو أي شيء آخر.

توقف محمد للحظة وكان قادما بشكل واضح الى مفصل اشكالي في القصة مقررا كيف سيتابع. "وهكذا قتل أحد الأشخاص عند باب شقته تماما. وقد أكد الجميع لي ذلك.

"وهذا الجزء سيء بما يكفي، لكن ما اكتشفته فيما بعد كان أكثر سوءا. تابع محمد كلامه، كان يمكن ألا أعرف بقية القصة. كان يمكن ألا يخبر أحدا يعرفه لو لم أذهب في احدى الليالي الى شقته وألاحظ انبعاجا أسود بحجم قطعة نقدية من فئة الخمسة قروش على الحائط

فوق مخدته. وحين أدرك أين نركز انتباهي رأيته يغص ويرتجف. وتدفقت الدموع من عينيه وتغير شكل وجهه بفعل تذكر مخيف. ما الأمر ياعمر؟ قال: "الحمد لله"، وهو يجمع هدوءا كافيا للكلام، أتذكر تلك الليلة التي خرجت فيها معك وعدت لأجد شخصا مقتولا على عتبة بابي؟ حين دخلت الى شقتي كان كل ما أريد أن أفعله هو أن أغلق الباب على العالم الخارجي، أنكور في الفراش وأنام أياما وأسابيع أو ربما أعواما. كنت متعبا ولم أرغب حتى أن أفكر أين أنا، ماذا أفعل هنا أو ما الذي حدث لتوه؟ وهكذا دخلت الى فراشي ورأيت الانبعاج". لم ألتقط حالا التلميح الذي قصده من كلامه. ضغط علي بهدوء وبحب كبير: "محمد، لو لم تأت تلك الليلة وتقنعني بالخروج لما كنت هنا الآن. بعد ذلك، وكأن مادة ما حولت تصلب جسده الى هلام، ذاب بين ذراعي. أرحته قدر الامكان قبل أن أخرج حزينا وأتركه وحيدا هناك. قال محمد بوقار وهو يوجه كلامه بوضوح الي: والآن تعرفون ماذا حدث لعمر في أميركا". بعد ذلك صمت.

واكتملت القصة وهيمن صمت مطبق على الغرفة. أدركت عندها كم هو من الصعب أن نتفاعل مع ألم شخص آخر أو خيبته. كلنا يجب أن نكون قد شعرنا، دون أن نعبر عن ذلك، كيف حدث هذا كله للشخص غير المقصود. كان بامكان عمر أن يعيش الى الأبد في ظل الأهرامات ولا شيء يدين براءته. ووجدت نفسي أتمنى لو أنني كنت هناك لأساعده في التعامل مع مشاعره حيال الحادثة ونحو بلادي. أردت يائسا أن أخبره أن أميركا ليست مكانا عنيفا كما هي عليه وأن لها رغم ذلك قلبا وروحا ومع ذلك، وفي نفس الوقت، تساءلت كيف سيكون بوسعي أن أكون مقنعا.

أخيرا قال أحد ما: "المسكين عمر"! وهذا عبر عن كل مشاعرنا.

غيرت مضيفتنا بعد ذلك الجو بتقديم فنجان اضافي من القهوة لكل واحد منا وصينية من البقلوى واضعة شريطا لأم كلثوم في جهاز التسجيل. شربنا القهوة وأكلنا من الحلويات واشتركنا في أغنية أم كلثوم، (يا حبيبي) وحضور القصة يجول في أذهاننا كطعم الهيل والفستق على ألسنتنا. واتخذ الحديث اتجاهات أخرى، عن نقاط مختلفة حول الحياة في القاهرة، عن المستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربية، عن الدقة السياسية ووضعية التمويل الحكومي للدراسات العليا وحين أدركنا تأخر الوقت بدأنا بتبادل الشكليات التي تسبق بالضرورة الوداع معبرين عن امتناننا ومديحنا للطعام ووعودنا بتبادل الزيارات ثانية.

استيقظت في الصباح التالي وأنا ما أزال أفكر بعمر بدوي وصورته وحضوره أصبحا الآن في مركز وعيي. تذكرت المقالة التي كتبها حول الروح الشاملة بعنوان اسلامية امرسون حين كنت أدرسه. وأذكر الوقت الذي جاء فيه الى حفلة في شقتي في الزمالك مرتديا سترة معرقة دافئة بيضاء ورائعة خمنت أن أمه حاكتها له. كانت واحدة من تلك السترات التي يوحي ارتداؤها بأن شخصا ما يحرص بشكل عميق على لابسها. ان القصد من وراء سترات كهذه هو أنها ستحمي اللابس وتجعله أكثر دفئا وجمالا. وتساءلت، هل أحضر تلك السترة الى أميركا؟

وغامرت بالخروج من كوب هول حيث كنت أسكن في تشابل هل لأقرأ رسائل غير منشورة وأوراقا لووكر بيرسي من أجل كتابة

سيرة ذاتية كنت أشتغل بها آنذاك. كان ذلك في صباح الأحد. كانت شوارع هذه البلدة الصغيرة، على عكس شوارع القاهرة هادئة نسبيا، يمشي فيها فقط أولئك الذاهبون الى تأدية الواجبات الدينية الصباحية في الكنيسة. عبرت الشارع الرئيسي واشتريت نسخة من النيويورك تايمز كعادتي، وبدلا من العودة الى غرفتي كما كنت أفعل عادة وجدت نفسي أهبط المضبة غير مدرك في البداية ماذا كنت أفعل ولماذا. وبعد ذلك ظهرت قصة عمر في ذهني. وكانت عيناي تبحثان عن المكان الذي حدثت فيه القصة من أجل أن أفهم المسألة بوضوح أكبر. لم يخبرني أحد في الليلة السابقة أين كان يعيش عمر وأين حدثت المشكلة، مع ذلك كنت، والقصة في ذهني، أبحث عن مشهد قابل للتصديق ليكون خلفية لها. وبعد أن تجولت دون هدف عدة فراسخ. عثرت على المكان. كان شقة رمادية مؤلفة من طابقين، بالأحرى موتيل من الدرجة الثالثة، بأبواب منفردة مفتوحة باتجاه الشارع. لم يكن يوجد مثلها في القاهرة حيث كانت حياة كل شخص متشابكة مع حياة شخص آخر كأزقة الجمالية المتقاطعة أو الأرابيسك في السلطان برقوق. وعرفت أن عمر لن يحب هذه الشقة.

يمتد المشهد بأمانة أمامي الآن. استرجعت القصة ثانية في ذهني. كان قد بدأ هذا كله بذكري لاسم عمر بدوي. ولم أكن أمتلك أدنى معرفة بأنه سيقود الى هذا. وعرفت فصلا غير محتمل من حياة عمر خارج حدود معرفتي له وكان قد شكل نموذجا مخادعا أضاف لونا وتعقيدا الى التصميم الأصلي. مايزال هناك الكثير خارج الحدود، خطوط تمتد خارج حدود معرفتي ولا أمتلك طريقة لأعرف كيف في

المستقبل يمكن أن يمتد الاطار ثانية أو تعاد موضعته.

ان ذهني ممتلىء الآن بجميع تفاصيل القصة، حتى بتلك التي حذفت في الليلة الماضية، بعودته وحديثه مع رجال الشرطة وأخيرا باكتشافه لثقب الرصاصة. لقد أضعفت قوة القصة وقللت من أهميتها بالنسبة لي رؤيتها عارية أمامي. عدت أدراجي وتوجهت الى مقهى لأقرأ التايمز.

مرفريسبورو،
تنيسي، ١٢ آذار، ١٩٩٢

- كلب السفير -

عرف الجميع أبا ديب حارسا لحديقة الحرية الأنيقة التي تقع في القسم الغني من المدينة. كان يعتني بها شاعرا بالفخر طوال فصول السنة يسقي النباتات والأشجار ويقلم أغصان الورد ويلم أغلفة السكريات وعلب فحم الكوك الفارغة ويصفر ليمنع ألعاب كرة القدم على الأعشاب صارخا بالشباب العنيدين ليعودوا الى الممرات المخصصة للمشاة. كان يوجد أيضا العشاق الذين يلتقون سرا على مقاعد الحديقة المنعزلة اذ لم يجدوا مكانا آخر يمنح أفقا لنقاشاتهم الملحة ولكلمات غرامهم ولرغباتهم الجسدية. وكان يسمح بهذا طالما أن الأمور تبقى ضمن حدود معينة، معترف بها. باختصار، كانت وظيفته حفظ النظام والملكية في هذا المكان العام. كانت الكلاب العدو الأكبر لأبي ديب والذي يهدد بازعاج كبير مهمته. كان يكره طريقة اندفاعها من شجرة أو دغل الى آخر وهي تبول وتتبرز على راحتها، وطريقة نباحها دون توقف وطريقة هريرها وزمجرتها عليه كلما تحداها أو أبعدها بعصا أو رفش. كانت عداوة الحارس للأنواع الكلبية معروفة جيدا في الحارة التي تحيط بالحديقة، اذ اختفى عدد لابأس به

من الوحوش المفلتة وساد اعتقاد كبير بأن لأبي ديب يدا في اختفائها. ولعبت الاشاعة دور الردع الفعال. وقبل مالكو الكلاب حقيقة أنه اذا كان عليهم أن يفلتوا كلابهم بحرية في الحديقة فانهم بهذا يجازفون بحياة حيواناتهم المدللة. ولاحظوا حين كانوا ينزهون كلابهم في الحديقة وهي مربوطة برسن بأنهم يتلقون نظرات احتقار وقرف غير مقنعة من أبي ديب. وهكذا قل عدد مالكي الكلاب الذين اختاروا أن يسلوا أنفسهم في الحديقة.

وشعر أبو ديب بانتصار يستدعي الفخر في معركته المستمرة مع الكلاب.

حدث أن سفيرا هاما لبلد أوروبي غني ومتقدم تكنولوجيا كان يسكن قرب حديقة الحرية. وحدث أن هذا السفير كان يملك كلبا رماديا ضخما ينبح باسراف ويعدو بوحشية في الحديقة بحرية تولد التحريض كلما أفلته السفير من ساحة بيته. وحين سمع السفير الشائعات حول أبي ديب وعرف نوايا حارس الحديقة عقد العزم على ألا يخاف من تهديدات ماكرة وأن لا يستسلم لنزوات طاغية تافه. وظن أنه يتمتع بحقوق كاملة تخوله أن يفعل مايشاء. وبرهن كلب السفير على أنه يمثل التحدي الأكبر لأبي ديب ليس لأن الكلب كان ماكرا فحسب وبشكل فائق للعادة، بل لأن مالكه يمكن أن يسبب مضاعفات خطيرة خاصة في وقت كانت حكومته فيه تتقرب الى الحكومة التي يمثلها السفير. اهتاج أبو ديب وقلق وازداد غضبه حين فكر ليس فقط بالأذى الذي كان يسببه الكلب للأزهار والأغصان، بل أيضا بيديه المقيدتين. وبأنه غير قادر على أن يسيطر على هذا الكلب الهجين اللئيم. كان الكلب الذي يتمتع بامتياز خاص يرهق أعصابه كلما جاء الى

الحديقة وبدا أن الكلب يحصل على كل مايريد ويتحرك في أي اتجاه يختاره دون أن يجبر نفسه على العبور في الممرات المخصصة للمشاة. كان بالتأكيد كلبا أجنبيا وبدا أنه يدرك بأنه لا يقهر وكان يسخر من الحارس ويبتسم متحديا لاهثا بصخب، مدليا لسانه الأحمر الطويل خارج فمه وهو يبول على أغصان الورد الحديثة التشذيب.

بعد ذلك وبشكل مدبر رفس كمية من الوسخ نحوه قبل أن يعدو بوقاحة. وأخيرا أصبح الأمر لا يحتمل بالنسبة للحارس. كان عليه أن يفعل شيئا ما قبل أن يقوده غضبه الى الجنون، وهكذا اخترع خطة بسيطة جدا ليتخلص من عدوه. اقتضت المرحلة الاولى مصادقة الكلب.. واتبع طريقة لتأمين عظام طرية ضخمة من بقايا طعامه وطعام جيرانه أو من اللحام. وحين كان يرى كلب السفير يعدو في الحديقة، كان يذهب الى كوخه الصغير عند البوابة ويحضر عظما ويصفر للكلب ويلوح به. خاف الكلب في بداية الأمر، الا أنه وبسبب اصرار الحارس استسلم أخيرا لشهواته الطبيعية وقبل بجشع عطايا الصداقة الطيبة المذاق. وحالما أقام أبو ديب علاقة ودية مع الكلب قام بزيارة الى أحد أصدقائه الصيادلة.

قال له أبو ديب: أريد شيئا قويا جدا.

ماذا؟ أجاب الصيدلي دون أن يفهم أي مرض مزمن عليه أن يقدم دواء له.

كرر أبو ديب، شيء قوي جدا. شيء ما يمكن أن يعتني بحيوان ضخم، بكلب ضخم. وأومأ الحارس للصيدلي بطرف عينه.

آه، وعبر الصيدلي عن فهمه لما يرمي اليه صديقه، اذ أنه وافق سابقا على تزويده بمواد تساعده في برنامج تطهير الكلاب. ودخل

الصيدلي الى الرفوف الخلفية بعيدا عن أعين الزبائن وعاد بزجاجة من البودرة البيضاء قائلا: هذه ستتولى الأمر. تعرف ماذا تفعل. رشها على الطعام واتركه يمتصها وسيتم الأمر في غضون ساعة. انه مهلك، لا تقلق. لن يترك أثرا. وبعد أن انتابه شعور بالراحة والرضا من النوع الذي يرافق النصر قرر أبو ديب أن المرة التالية التي سيرى فيها كلب السفير ستكون الأخيرة.

لم يكن السفير في المنزل في اليوم الذي رجع فيه كلبه من الحديقة وهو ينتحب بحزن ويتثاءب ويستلقي على ظهره متألما بشدة. كانت "ديبثي" الخادمة السيريلانكية هي أول من شهد حالة الكلب. ولأنها تعرف حب السفير لكلبه وخوفا من غضبه وتوبيخاته في حال حدوث أي شيء اتصلت الخادمة بالسفارة لتعلم السفير أن كلبه يتشنج. والسفير الذي بدا منزعجا اختصر مقابلة مع وفد من رجال الأعمال الذين قدموا من بلاده ويمثلون منتجين للألبان وصناعة السيارات وموزعين للحاسوبات والمشروبات مهتمين بالقيام بأعمال في بلده المضيف، وذهب ليتحقق من أمر الكلب.

في الوقت الذي وصل فيه الى المنزل كان الكلب يلفظ أنفاسه الأخيرة. وتحلق حوله جميع أركان السفارة حين انحنى على ركبتيه أمام الكلب المحتضر متفحصا علاماته الحية ورافعا جفنية المطبقين. متبينا في الحال ماحدث ومن كان مسؤولا، قرر السفير بأنه لن يتعامل مع المسألة بحياد بما أنه غالبا ما يتوقع أن الدبلوماسيين يتلقون الاهانات والاساءات في بلدان أجنبية. اتصل بمترجمه وقال له انهم ذاهبون الى حديقة الحرية ليتحدثوا مع أبي ديب.

أبو ديب، الذي كان يرتدي كالعادة سترته الرمادية الرثة والفريدة وبنطاله الأسود بالاضافة الى كوفية تلف رأسه راقب باهتمام اقتراب السفير الأجنبي الذي كان يرتدي قميصا أبيض نظيفا مشدودا بأناقة بربطة عنق حريرية وسترة وحذاء أسود ملمعا بافراط. قال مترجم السفير حين اقتربوا: السلام عليكم. رد حارس الحديقة التحية: ورحمة الله وبركاته. دخل السفير في الموضوع مباشرة دون أن يتفوه بالتحية المألوفة:

- "إسأله اذا شاهد الكلب مؤخرا".

تبادل المترجم والحارس الكلام باللغة العربية. ونقل المترجم الى السفير: "قال انه شاهد كلبك الضخم في الصباح الباكر ولم يلمحه بعد ذلك".

قال السفير: "أخبره ماذا حدث للكلب".

بينما كان المترجم ينقل القصة تفحص السفير وجه الحارس بحرص. "آه"، استجاب أبو ديب حالما سمع القصة دون اكتراث أو دهشة أو عطف. وسأل السفير الحارس مباشرة وبلغته: "حسنا ألبس لديك فكرة". نظر الحارس بانشداه الى المترجم دون أن يفهم مغزى السؤال.

وحالما فهم الحارس السؤال أجاب: "يجب ألا يترك مفلتا في الحديقة. كان ينبح بصخب ويتبرز ويسبب ازعاجا للعامة.

نقل المترجم الكلمات باخلاص الى لغة السفير وقد توقف قليلا محاولا أن يقرر أية لغة يستخدم: لغة الارضاء أم اللغة المباشرة الفجة:

يتبرز. استقر على الخيار الثاني ليحافظ على سوقية الكلمات الأصلية. حين فهم السفير ماقاله الحارس اعتبر الأمر وكأنه اقرار بأنه يستحق اللوم وبدأ خطبة لاذعة، "ليس لك أي حق اطلاقا بأن تعامل كلبا بهذه الطريقة، أن تسممه. يجب أن تعرف كيف تكون متسامحا. تقول انه أزعجك. حسنا هناك ازعاجات كثيرة في بلدكم تعلمت أن أتكيف معها مثل أعراسكم بكل ضجيجها وغنائها الأجش ومثل مؤذنيكم. انهم بالتأكيد يصخبون وهم يوجهون دعواتهم الى الصلاة طوال ساعات النهار والليل. من الصعب أن ينام المرء بارتياح، ورغم أنني لا أحب ذلك فأنا لا أذهب لأسممهم أو أطلق النار عليهم.

حاول المترجم أن يخفف من حدة الرسالة حين نقل ترجمة مكثفة لكلمة السفير الى العربية. وحتى قبل أن يعرف تماما ماقاله السفير استطاع أبو ديب أن يفهم بوضوح اللهجة الغاضبة المهتاجة للكلمات. تعرف على كلمة مؤذن لكنه لم يفهم المغزى الى أن نقل له المترجم ماقاله السفير. ألهبت الاهانات غضب أبي ديب أكثر من أي شيء آخر فعله الكلب فبدأ يزفر بصمت. من هذا الأجنبي ليأتي ويحاضر بلغة غريبة؟ يجب ألا يدخلوا بشرا كهؤلاء الى البلاد. كان يعني هذا بداية جميع المتاعب. ومواجها بهذا الصمت استسلم السفير يائسا. لم يكن يمتلك دليلا ليدعم ايمانه الشديد بذنب أبي ديب. كانت كلماته الأخيرة أنه سيحتج لدى حكومة الحارس وهذا بالتأكيد سيقيل الرجل من عمله. حين فكر السفير بالأمر خطر له أن هذا سيجعله يبدو سخيفا ليس فقط عند البلد المضيف بل عند حكومته أيضا. اذا اهتم كثيرا بقضية الكلب في الوقت الذي توجد فيه قضايا أكثر الحاحا بخصوص العلاقات بين البلدين. وفي الحقيقة سيخسر الكثير. يمكن أن يظن

الناس في وزارته أنه فقد عقله وربما أقالوه. وهكذا ذهب السفير مع مترجمه مقررا أن ينسى الموضوع. سوف يفتقد كلبه كثيرا لكن على الأقل يستطيع أن يعزي نفسه بفكرة أن هذه القصة ستكون قصة جديرة بأن تروى في حفلة كوكتيل.

راقب أبو ديب الاثنين وهما ينسحبان مفكرا كيف سيرد على السفير. اذ أنه لن يصمت حيال هذه الاهانات. لا يا سيد. سيجد طريقة ما. سيفكر بالأمر ويصل الى نتيجة ما حتى ولو أخذ الأمر وقتا طويلا. كان متأكدا أنه يستطيع أن يصل الى خطة مقنعة. فرغم كل شيء تخلص من الكلب، أليس كذلك؟

كانون الأول ١٩٩٣

خط في الرمال

قرأ المدرس لائحة أسماء الحضور كالعادة. ولو انتبه لكان قادرا على التقاط مستوى غير عادي من التوتر في الجو منذ اللحظة التي دخل فيها الى غرفة الصف. كان جميع الطلاب يتحدثون عن الموضوع قبل أن يبدأ الدرس. ولم يعرف أحد كيف يخبر المدرس وهكذا تركوه يستمر وكأن كل شيء كان على مايرام. وحين وصل الى قائمة الباء ارتفع التوتر الى أوجه.

- كودي باركر.

نظر المدرس حوله ليرى اذا كان أي شخص سيجيب قبل أن ينتقل الى الاسم التالي. كان الفصل الدراسي في بدايته ولم يسمح له هذا الأمر أن يعرف الطلاب بشكل جيد جدا. تفوه بالاسم ثانية، كودي باركر.

توقف. ثم قال:

"أخمن أن السيد باركر ليس معنا اليوم". وتابع قراءة القائمة الى أن وصل الى نهاية الأحرف الأبجدية. أغلق الدفتر وبدأ درس اليوم.

"لابد أنه مزاح، قال كودي باركر ذلك بصوت مرتفع معبرا عن تعجبه حين سمع الأنباء من راديو شاحنته التي كان يقودها ذلك اليوم لينقل البضائع. لقد أدهش غزو صدام حسين للكويت في آب ١٩٩٠ الجميع في الغرب تقريبا. لم يكن هناك تحذير مسبق. ولنفترض أنه وجد فلم يلتقطه أحد حتى السفيرة الأميركية في بغداد.

تابع كودي مثله مثل الأميركان الآخرين الأنباء التالية للغزو عن كثب باهتمام أكثر من عادي لأنه كان في الحرس الوطني. وسمع الرئيس الأميركي يصعد بلاغته المعادية لصدام حين رسم خطا في الرمل وأرسل الجنود الى السعودية كجزء من تحالف دولي ليؤكد أن العراق لن يعبر الخط وأنه لن يسمح للطاغية الهتلري أن يفكر بأنه سينجح في الاستيلاء على بلد صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه ولو كانت المصادفة جعلته غنيا بالثروة النفطية. ماذا يمكن أن يفعل صدام بعد ذلك؟ يجب أن نواجه قوته التي لا ترحم. يجب أن نتمسك بمبادئنا الديموقراطية. وحتى قبل أن تستدعى وحدة حرسه الوطني في بداية تشرين الثاني كان كودي متحمسا للذهاب. وبدت المسألة وكأنها الشيء المناسب له. منذ عامين وفي الوقت الذي تخرج فيه من الثانوية حصل على وظيفة في UPS وجن من الفرح في بداية الأمر. كانت النقود كثيرة وفقا للمعايير المحلية وشعر بروعة أن يكون خارج المدرسة، في عالم الواقع، واقفا على قدميه. وعلى أية حال أصبح الروتين الآن مألوفا جدا وانتهت الروعة وبدأ كودي يتساءل فيما اذا كان هذا كل مافي الحياة. وفي أحد الأيام وبينما كان يقود الشاحنة حول تلال تقع وسط المسيسيبي لينقل البضائع تخيل نفسه فجأة وكأنه في سن الخمسين ويقوم بالعمل نفسه مما جعله ينتفض رعبا.

ورغم أنه قضى معظم حياته في لبنان التي تقع في تنيسي، حلم دائما بعوالم في مكان آخر. واعتقد أنه لو منح فرصة لاستطاع أن يفعل شيئا عظيما. والآن جاءت هذه الحرب، تماما في الوقت المناسب له وستزوده على الأقل بفرصة مؤقتة للنجاة وهذا ماكان ينتظر حدوثه. بعد ذلك، ومن هناك سينتظر ماالذي سيحدث فيما بعد. يمكن أن ينفتح شيء آخر. ولم يفكر أبدا بالموت. لم تكن والدة كودي متحمسة حيال ذهاب ولدها الى القتال.

بعد كل شيء كان كودي ولدها الوحيد. كان الرّجل الوحيد في المنزل بعد أن توفي زوجها منذ سبعة أعوام. هكذا عبرت عن صدمتها وخوفها حين علمت أن ابنها استدعي للالتحاق، "بحق الله ياكودي. لماذا تفعل هذا بأمك العزيزة؟ ألا تعرف أنني سأقلق حتى الموت طالما أنت هناك؟" ولم يستطع كودي أن يصيغ جوابا اذ لم يرغب أن يؤذي والدته. مع ذلك كان قد قرر سابقا ما يعتبره الشيء الأفضل له ولم يرغب بأن يغير رأيه.

"آه، لا أعرف، تابعت السيدة باركر"، أنا وطنية كأي شخص في تنيسي، وأعرف أنني ربيتك على حب بلادك. ولم أفكر أبدا أن الأمور ستصل الى ماهي عليه".

كان لديهما القليل من الوقت ليفكرا بذلك قبل رحيل كودي. منح كودي ثلاثة أيام فقط منذ الوقت الذي تلقى فيه الأوامر ليرتب أموره. وفي صباح رحيله جمع وحزم في حقيبته الصوفية جميع الأشياء المدونة على القائمة التي أعطاه اياها ضابطه الآمر. كان قد أخبر مديره وأصدقاءه الموظفين في UPS وهؤلاء بالتالي أكدوا له أن مكانه في العمل سيظل شاغرا الى حين عودته.

كان قد ذهب الى البنك ليقوم بترتيبات مدفوعات سيارته من أجل أن تتوقف عن العمل بينما هو في الخارج. وقد قام أخيرا بقضاء ليلة وحشية ووجدانية مع أصدقائه الذكور وشرب حتى سكر بيرة "رولينك روك" وتناول الجعة المحلية وغنى وصاح وقاد السيارة بجنون على جانبي الطريق. كان هناك شيء واحد ينقصه. حين تذهب الى الحرب أليس من المفترض أن يكون لك عشيقة تقبلك وتودعك كما هو الأمر في ملصقات التجنيد القديمة.

"قف هنا. هذا مناسب. انظر الى هنا تماما. ابتسم. انه ولدي" طلبت السيدة باركر من ابنها الذي يرتدي البزة العسكرية وهي تقاوم الدموع أن يأخذ موضعا أمام الكاميرا ويسجل لحظة أخيرة من الزمن ظنت أنها يمكن أن تكون ذكراها الأخيرة له. كان الآخرون يسجلون الحدث أيضا وكأنه كان طقسا جماعيا رتبت تفاصيله وأجمع عليه منذ دهور.

أمر الجنود الشبان أخيرا أن يشكلوا صفا ويتقدموا الى طائرة النقل الكبيرة س٤ المنتظرة ببطنها المفتوح الجاهز لابتلاع أجساد الجنود الشبان. حاولت السيدة باركر أن تلاحق ولدها بعينيها حين تقدم مع البقية الا أن قامته ذابت حالا في الكتلة الخاكية التي لا تميز.

* * *

كانت القرانيا والورود الأخرى تتفتح حين عاد كودي الى لبنان في تنيسي في نيسان. كانت هذه هي الفترة الأطول من الزمن التي غاب فيها عن وطنه. وبعينين جديدتين نظر كودي الى المشهد. كان كل شيء على ماهو عليه قبل أن يغادر، فقط تغيرت الفصول. كانت الثياب المألوفة معلقة في الخزائن المألوفة ومطوية في الدروج المألوفة في

غرفة نومه التي تقع في الطابق الثاني من منزلهم والتي تحتوي على نافذة صغيرة تتحكم بمشهد الحارة كله. وتذكر كيف عندما كان صغيرا كان ينظر من نفس النافذة متخيلا المكان حوله دغلا معاديا وبحرا مخيفا أو مألفا للصوص وقطاع الطرق. أما الآن فانه يرى سيارته الأنيقة تنتصب على الطريق وكأنها كلب صيد صغير. وخطر له أنه مايزال دون عشيقة.

كان الترحيب بعودته الى الوطن دافئا. فهذه الحرب كما تم التأكيد للمجتمع الأميركي ليلة بعد ليلة على شاشة التلفزيون لم تكن فييتناما أخرى. لم تستمر طويلا. كان هناك بعض القتلى من جانبنا على الأقل. لقد ربحنا أو هكذا قالوا. ورحب بالرجال والنساء الذين خدموا بلادهم ترحيب الأبطال. عج المطار بالجموع وبالصحفيين المبتهجين وكانت أعمدة المنازل مزينة بشرائط صفراء طويلة. وفي يوم السبت بعد عودة رفاقه رتب استعراض يحوي عربات بمنصات، فتيات عاريات السيقان يلعبن بالأطواق الدائرية، فرقا موسيقية متقدمة قصاصات ورق وكان هو والجنود الآخرون الذين جاؤوا من الخليج يركبون سيارات جديدة قدمها وكلاء السيارات المحليين. ركب كودي في مازدا حمراء ذات غطاء قابل للطي. الآن أصبح شخصا ذا شأن. واعتقد أن الأمر مضحك لأنه لم يجازف كثيرا. اذ لم يشهد في الحرب أي فعل وبدأ يلفق قصصا ليخبر الناس عن العواصف الرملية والتعرض للخطر والمناوشات مع العراقيين فقط ليشد الانتباه الذي كان يحصل عليه أكثر. وبدت له تجربته الفعلية هناك في الصحراء السعودية، في تلك الخلفية الساكنة السريعة الزوال، بعيدة وسوريالية.

وفي مساء يوم الاستعراض كان كودي ووالدته يجلسان في غرفة

إلجلوس يسمعان أنباء الـ CBS. وجاء فيها تقرير عن نتائج حرب الخليج. هل توغلنا بما يكفي؟ كان هذا هو السؤال الذي طرحه الصحفيون على الخبراء وغير الخبراء. وارتفع صوت والدة كودي فوق أصوات التلفزيون بينما كانت الصور تخطف أعينهم بين وقت وآخر، "جيد أنك عدت يا ولدي. لا تعرف كم كنت قلقة. شاهدنا الحرب في التلفزيون. وفي كل وقت كنت أشاهد فيه أي شيء لم أقدر على مقاومة التفكير بك. أتذكر تلك اللحظة المتوترة حوالي ١٥ كانون الثاني حين تساءلنا جميعا، ماذا سيفعل بوش؟ وصليت كي لا تنشب الحرب الا أنها نشبت. أولا كان هناك الحرب الجوية حين بدا أن كل شيء كان صادقا. لا أظن أن الناس كانوا مهتاجين هكذا منذ أيام جون.ف. كينيدي. الا أن ذلك لم يستمر طويلا. بعدما جاءت تلك الأيام حيث كان كل ما يتحدثون عنه هو الحرب البرية - هل هي ضرورية أم لا؟ وكم سيكون عدد الضحايا؟ التقوا بجنرالات وخبراء في برنامج الأنباء وقالوا فقط عدة مئات، آخرون قالوا الآلاف. الا أن هذا لم يجعل الأمر مختلفا، اذ لو سقط قتيل واحد فلسوف أظنه أنت. آه! انه لرائع أن تكون في البيت الآن! لا تقدر أن تتخيل كم أنا مرتاحة الآن.

أراح كودي والدته قائلا كم هو رائع أن يعود الى البيت. وتابع محاولا أن يقول لها كيف كانت الأمور هناك، الصحراء، الزملاء، الانتظار، الجاهزية دائما لحدوث شيء. قال انها كانت مثل رحلة استكشافية للأولاد. وقال لوالدته ان الحرب منحته وقتا للتفكير بحياته. هناك، بعيدا عن روتينه اليومي قرر أنه سيعود ويغير حياته. كانت دائما لديه تلك الفكرة في أن يصبح فنانا. عزز الضوء والرمل

في الجزيرة العربية فيه رغبة أن يعبر عن شيء يشتعل في داخله. لم يعرف ماهو ذلك الشيء الا أنه ألزم نفسه بمحاولة اكتشافه. وسوف يدرس بعد ذلك الفن في جامعة قريبة. ولم يعرف الى أين سيقوده الأمر، لكن على الأقل سيقوم بمحاولة. انتهى برنامج الأنباء في الوقت الذي ختما فيه حديثهما. أدار كودي الشاشة الى قناة أخرى ليشاهد حلقة (ستارتريك)، الجيل القادم وهي من عروضه المفضلة والتي افتقدها وهو في الخارج.

نام كودي ووالدته في تلك الليلة بعمق أكثر مما فعلاه لعدة شهور خلت شاعرين بالأمان والراحة وكأن المنطقة الأكثر خطرا اجتيزت والحياة على وشك أن تبدأ من جديد.

* * *

استيقظت سارة ديلاني صباح الأحد الواقع في ١٩ كانون الثاني ١٩٩٢ متأخرة عن موعد ذهابها الى الكنيسة، ليس هذا لأنها متدينة. كان الأحد اليوم الوحيد في الأسبوع الذي تستطيع النوم فيه. وفي الليلة السابقة تأخرت عن النوم بسبب خروجها مع الأصدقاء. استيقظت مرة في السابعة والنصف وهو الوقت المعتاد لاستيقاظها، بعد ذلك عادت دون جهد الى النوم. الساعة الآن هي العاشرة والربع والغرفة مشعة بالضوء، مع ذلك منعها الهواء البارد من النهوض بسرعة. استلقت في الفراش متناولة جرعة أخرى من النوم الممتع لمدة عشرة دقائق قبل أن تجمع العزم على أن تنهض وتسخن الثرموستات وتجهز الماء للقهوة.

فتحت باب شقتها وهي ماتزال في روب الحمام الأخضر واندفعت الى الخارج نحو المدخل لتحضر طبعة الأحد من (الدبلي نيوز جورنال).

استلقت على الأريكة الخضراء المريحة والصحيفة في يدها. اشتعلت التدفئة مزيلة البرودة من الهواء ونشطت رائحة القهوة معنوياتها كما ستفعل ذلك أية موعظة حسب اعتقادها. واستيقظت في ذاكرتها جملة لوالاس ستيفينز "فضفضة البنوار"، كان قد قرأها البروفسور الذي درسها الأدب. ماذا كانت الأسطر التالية؟ شيء ما عن ببغاء ذو عرف ورائحة البرتقال والقهوة. كان عنوان القصيدة صباح الأحد. ربما كان هناك علاقة بين الحياة والأدب بما أن الجملة اكتسبت معناها بالنسبة لها الآن.

تخلصت سارة من الفكرة العابرة والتفتت تلقائيا الى فنجان القهوة الذي صبته لنفسها وتناولت رشفة أنيقة وبعد ذلك أزالت الرباط المطاطي عن الصحيفة وفتحتها. في الأعلى وتحت عنوان الطقس كان يوجد رسم لشمس تظهر وجهها من وراء غيمة رمادية. على الأقل لا يوجد ثلج. الحرارة في منتصف الثلاثين. يوم الاثنين سيكون أكثر دفئا. هذا جيد. لقد أصبحت فاتورة الكهرباء الخاصة بمنزلها مرتفعة جدا. وفي أعلى اليمين كان يوجد أخبار أخرى في الصحيفة:

امرأة تعمل من أجل الذين هم بلا مأوى ص٣

برنامج الصداقة يساعد الجميع ص١

الفائدة المنخفضة يمكن أن تشجع المبيعات ص١

واتجه بصرها الى عنوان انتشر على الصفحة الأمامية مكتوبا بحبر غامق. متطوع في حرب الخليج، عمره ٢٢ عاما، قتل بصخرة. اعتقل رجال القانون من ١-٢٤ مجرما وتحت الترويسة كان يوجد صورة لبيك

آب محطمة واضحة بما يكفي لأن تعرف نوعها، رانجر. والاطارات من ماركة ستون. بدأت تقرأ المادة مذهلة: كودي باركر تفادى صواريخ السكود في السعودية عندما خدم هناك، الا أن الطالب الجامعي الشاب لم ينج من صخرة وزنها (٣٠) كيلو غراما رماها أحدهم عليه في الساعة الرابعة صباحا من يوم السبت. كان هو الشاب الذي يدرس معها الفن في الصف. نعم هذا هو اسمه. انه هو. كانت قد تحدثت اليه بعض المرات قبل وبعد الدرس. اشتكيا من الصف وتبادلا أفكارا حول مشاريع فنية. ولقد أحبت المشاريع القليلة التي أتمتها وأخبرته بذلك. حاولت تذكر كل شيء وحاولت بطريقة ما أن تحدد أو تلتقط الأفق حيث تلتقي الأرض بالسماء. كان يشتغل بمفرده بدرجات لونية رملية وأثيرية. تابعت القراءة بصدمة وخدر. اقتبس كلام أحد أصدقائه: "أعني أنه ينجو من الحرب ويعود الى الوطن ليلقي عليه شخص عجيب صخرة ويقتله. يجب ألا يحوي المجتمع أشخاصا كهؤلاء. يجب أن يعدموا على الكرسي الكهربائية. أو يفعل بهم الشيء نفسه. ستتم الجنازة يوم الثلاثاء القادم. أيجب أن تذهب؟

متخيلة نفسها وحيدة هناك، أدركت كما كانت معرفتها به قليلة. أي نوع من الأصدقاء كان يمتلك؟ ولم تعرف حتى اذا كان لديه عشيقة؟ ماذا عن أسرته؟ لم تذكر المقالة شيئا عن ذلك. يجب أن يكون له أم. كم سيكون الأمر مرعبا لها.

وماذا كانت صلتها به؟ لماذا تشعر بهذا الاحساس الحاد المدوخ وكأن نفسها انقطع؟ هل خلقت ارتباطا معه عبر هذه الأخبار المدهشة أو أنها كانت تطور سابقا اهتماما أكثر من المعتاد به عاقدة عليه بعض الآمال المستقبلية؟

طوت الصحيفة منذهلة، غير قادرة أن تقرأ الدعايات، غير قادرة على التفكير بما يمكنها أن تفعله بقية اليوم. فجأة، وبتوتر مرعب شعرت بأنها داخل تلك الثغرة الكريهة وقد غادرها شخص خطفه الموت، وفكرت كيف غدا، في الصف سيصبح ذلك المكان الذي عرفته فيه، تلك الثغرة، أكثر ضخامة وسوادا.

رحلة قصيرة الى الأردن

فتح الباب أخيرا وأمامه وقفت مارلينا تنعم النظر مرتعدة لترى من كان يقرعه بالحاح شديد. وحالما تكيفت مع حضوري غير المتوقع رمت ذراعيها حولي وعبرت عن سرورها برؤيتي وبعد ذلك أرخت شلالا صغيرا من الدموع بينما كان رأسها يغوص، وهي تنشج، في صدري.

لم أعلمها مسبقا هي وزوجها بزيارتي. ولهذا السبب لا أعتقد أنها كانت تعرف أنني موجودة في هذه المنطقة، ولهذا كانت دهشتها لدى رؤيتها لي قابلة للفهم، الا أن الدموع بدت وكأنها تعبر عن شيء أكثر من الشعور بالفرح عند رؤية صديقة قديمة وعزيزة بعد فترة طويلة من الفراق.

ولم يكن لدي وقت طويل لأسأل عن قلقها، لأن مارلينا توقفت حالا عن البكاء وحركتني بذراعها الى المطبخ حيث أجلستني وقدمت لي القهوة وأفضت الي بمكنون صدرها. آه يا الينور! لا تعرفين كم أنا مسرورة برؤيتك! كيف أحوالك؟ ماذا تفعلين هنا؟ لا أمتلك أية فكرة!

لم أكن أرغب برؤية أحد الآن. ان زيارتك مثل جواب لصلاة لم أفكر بتأديتها. تعرفين أنني أفعل ذلك مع كل شخص هنا. ايفيت كانت صعبة جدا و"غس".. لا أدري ان كنت تعرفين أن "غس" ليس على ما يرام. سترين بنفسك حالا. انه نائم الآن. يريد أن يزوج ايفيت قبل أن يموت، وهذا يمكن أن يحدث في أي يوم. كنا نستقبل خاطبا بعد آخر لمدة أكثر من عام. ان عمرها تسعة عشر عاما وستبلغ العشرين اليوم. سترين كم يمكنك البقاء هنا؟ نتوقع وصول ميشيل وزوجته في أي وقت اليوم من لوس أنجلس قبل أن يأتي الخاطب الجديد. وصلت طائرتهما البارحة الى عمان. قلت لهما انه من الأفضل أن يأتيا حالا اذا أرادا أن يشاهدا "غس" على قيد الحياة. وكما ترين هناك الكثير في ذهني ويبدو أن الجميع يستخفون بوالدتهم. أعتني بالجميع ولا أحد يعتني بي. بالتأكيد تعرفين ذلك يا الينور. لكن أنا آسفة أنني أنانية. يجب أن نبتهج ونمتع أنفسنا قدر المستطاع. أحضري حقائبك. يمكنك أن تمكثي في الغرفة التالية للصالون بعد غرفتي، تلك التي اعتدت دائما أن تشغليها عندما كنت هنا في اربد. هيا بنا. لابد أنك متعبة من الرحلة. هل وصلت اليوم؟ ماذا تفعلين الآن؟ آه، سيكون لدينا الوقت الكثير لنتحدث فيما بعد ان شاء الله.

واكبتني مارلينا الى الأجزاء الأكثر خصوصية في المنزل، وعكس بلاط الغرف الملمع ظلال جسدها الرشيق حين انسلت بنعومة وكأنها لم ترفع قدميها أبدا. هنا، قالت وأدخلتني الى الغرفة المألوفة الفقيرة الأثاث والتي رغم ذلك تعكس ذوقا، حيث توجد خزانة تعلوها صور العائلة وفراش واحد مسند الى الحائط. فتحت مارلينا مصاريع النافذة وسحبت الستائر مالئة الغرفة بضوء الصباح. "اغتسلي واستريحي" لا

تشعري بأنك ستفعلين أي شيء. كل شيء جاهز. نظفت وطبخت في الأيام الأخيرة الثلاثة محاولة أن أجهز كل شيء. سأتركك وحدك لفترة. أعرف كم يمكن أن تكون الرحلة متعبة خصوصا حين يكون عليك أن تنتظري طويلا على الحدود. سأعود اليك حين يستيقظ بوب وعندها نستطيع أن ندخل ونراه. يجب أن أحذرك ياالينور! انه ليس على مايرام. لقد فقد ذاكرته. يمكن ألا يتعرف عليك. بعد ذلك، انسحبت مارلينا من الغرفة وتركتني مع الفترة القليلة من العزلة التي عشتها منذ أن غادرت دمشق في فجر ذلك اليوم. ارتميت على الفراش، وتعقبت أصابعي دون وعي مني النماذج الزهرية التي نتأت على غطاء الفراش الفيروزي المصري. واستقرت عيناي المتجولتان على لوحة بحرية معلقة على الحائط المقابل والتي لم أتذكرها في السنوات السابقة لزيارتي الأخيرة، حين كنت قد أصبحت، وأنا أحاول النوم في تلك الليالي على علاقة حميمية مع ألوانها وخطوطها.

وشدني ضوء الصباح الى النافذة التي تطل على المزرعة. وبرزت تلال صخرية تعلوها أجمات من أشجار الزيتون في اتجاه الشمال وامتدت بين المنازل والتلال حقول في بداية اخضرارها، رغم أن الشهر هو شباط والجو مايزال باردا. بعد شهر سيأتي الربيع بقوة هائلة وذروة لا تكبح من التبرعم والانفجار، وهي راحة منتظرة بعد الشتاء البارد الذي لا يرحم، وفي اتجاه الغرب، خارج المنظر، كان نهر الأردن يتدفق عبر واد مسطح خصب منتشرا من بحيرة طبريا. كان المنظر مدغدغا وكأن الذاكرة استدعته من مرحلة الطفولة. هذا ماجئت من أجله. أن أقضي وقتا قصيرا في مكان بعيد، في أفق جديد، قد أستطيع فيه أن أخطط لحياة جديدة.

أخبرتني مارلينا في رسائلها عن أحوال جورج، الابن الثالث، وكيف كان يدير المزرعة بشكل جيد. بدا أميركيا في غريزته التجريبية. أحضر سلالة جديدة من الماشية من "مونتانا" وجرب زراعة الخرشف وفاكهة الكيوي بالاضافة الى حماية بساتين الليمون وتطوير أساليب مكتملة لانتاج القمح. وفي الحقيقة كان والد "غس" أو "غسان" أميركيا ولد في غرب "فرجينيا" ونقل الى أقربائه في لبنان بعد أن أصبح يتيما في سن الخامسة. والآن تدهورت انكليزيته أما عربيته فتامة. أخبرتني مارلينا في أوقات مختلفة عبر رسائلها كيف تفجرت الألغام الاسرائيلية بماشيتهم وكيف استولت الحكومة الأردنية على أجزاء من أملاكهم لأسباب عسكرية.

كانوا مستعدين لتحمل عبء الانتقال في فترة ما في المستقبل - من يعرف متى؟ - لكن في ذلك الوقت كان هذا منزلهم وسيبقون فيه قدر استطاعتهم.

كانت مارلينا من طالباتي المجتهدات حين كنت أدرس في اليرموك. كانت في ذلك الوقت شابة وعازبة. عبرت لي عن لطفها أنا الأجنبية في الأردن. وكانت نوعا ما غير منتمية كونها لبنانية مسيحية الأصل رغم أنها تعرف اللغة والثقافة. جاءت الى الأردن في بداية الثمانينات هربا من فوضى الحرب التي مزقت بلادها بعد ذلك، وبينما كنت هناك تزوجت من "غس" الذي يكبرها بثلاثين عاما، والذي اعتبر صيدا جيدا لأنه كان غنيا وملاكا ومحترما. وكانت تتمتع بما يطلبه في المرأة. كانت شابة وجميلة، لبنانية ومسيحية، وبعد الزواج أصبحت مارلينا في الحال أما لأسرة كبيرة، لأولاد "غس" الأربعة الذين أنجبوا من زواج سابق وكان اثنان منهما أكبر منها.

أيقظني قرع ناعم من اغفاءة صباحية خفيفة. لم أشعر فيها أنني نمت. لابد أن يكون الوقت بعد الظهر الآن كما خمنت من نوعية الضوء ومن تذكر باهت في أنني قد سمعت عبر ستار النوم أذان منتصف النهار.

وسألتني مارلينا بلطف، "لقد استيقظ غس. هل ترغبين بالدخول لرؤيته الآن؟ واستطعت أن أخمن أنه لن يعمر طويلا. كان هناك فقط اشارات طفيفة تدل على الحياة، مجرد نفس مهمهم يصدر عن جسد ضعيف، هادىء وذابل وهش كسيقان قفاز الثعلب أو الخطمي في نهاية فصليهما. ربما لم يكن التأثير دراماتيكيا على مارلينا التي تشرف يوميا على انحلال صحته مثلما كان علي، أنا التي كانت آخر ذكرى لي عن غس أنه كان شخصا قويا على حافة الهرم.

"هناك، هناك. الآن ياغس"، خاطبت مارلينا زوجها بهدوء معدلة الغطاء حول كتفيه. كيف تشعر الآن؟ سألت دون أن تحظى بجواب. "لدينا زائر اليوم، بالتأكيد أنت تتذكر الينور؟ غالبا ماكانت تأتي الينا حين كانت في اربد منذ ستة أعوام". "والدة جيني"؟ في احدى المرات وعدت ابنتي "جورج" وكان هناك حديث عن الزواج رغم أن جيني قررت أخيرا أنها لا تستطيع أن تعيش أبدا في "اربد".

أطلق تنهيدة يستطيع المرء أن يعتبرها نوعا من التعرف. قلت: "مرحبا غس"، ووضعت يدي على جبهته ذات اللحم الزلق الناعم كأنه لحم دجاجة ميتة.

أمضينا وقتا قصيرا في الغرفة. ولدى خروجنا، اقترحت وأنا أشعر برهاب المكان اذا كان بوسعي أن أتنزه بمفردي، وقلت انني لن أغيب أكثر من ساعة.

كانت الشمس في وسط السماء. ولم أشعر بالبرد وأنا أرتدي سترتي الصوفية الكثيفة. ومن باب المزرعة أشرت لسيارة أجرة صفراء وقلت للسائق: الى اربد من فضلك. وبعد ذلك واجهت سيل الأسئلة المتوقع. من أين أنا؟ أميركا! آه انها بلاد رائعة. خذيني معك.

وتذكرت وأنا أضحك بصمت عدد اقتراحات الزواج التي تلقيتها حين عشت في اربد. كان يأتي الي رجال لا أعرفهم ويطلبون الزواج مني ولا يهم اذا كانوا في العشرين وأنا أقترب من الخمسين. كل ما كانوا يريدونه هو بطاقة الدخول.

كانت المزرعة بعيدة عن اربد، ومع ذلك كانت المدينة تسير ببطء نحو المزرعة وكأنها نهر جليد وتدفع جانبا أو تحطم كل شيء يقف في طريقها. كان ينبع ركام من المنازل الجديدة المربعة الاسمنتية بغزارة وبشكل كريه، حيث كانت تنمو أشجار التين والزيتون وشتلات البندورة. كم كانت الأشياء تتغير! ولم يكن ذلك نحو الأفضل، كما اعتقدت وأنا أمسح المشهد الذي يتعاقب خارج نافذة السيارة كفيلم وأنا أفكر بحياتي. هل العالم أقل أملا مما كان عليه في نهاية الحرب العالمية الثانية حين خرجت من المهد؟ لكن الآن يجب علي أن أكون قد أدركت ماذا أفعل بحياتي. يجب أن أعي الأشياء. وغالبا ما فكرت لو كان بامكاني فقط أن أوقف الزمن لمدة أسبوع أو يوم واحد وسأكون قادرة على استيعابه كله. كان المجيء الى دمشق مثل المجيء الى اربد سابقا مبنيا على أمل قوي أن هذه الأمكنة في الشرق الأوسط يمكن أن تقدم الأفق الجديد الذي كنت أتوق اليه. ولم أقدر أن أقول فيما اذا كنت أهرب أو أقترب أكثر من ذاتي المندفنة.

قادتني هذه الأفكار الى حافة المدينة حيث وجهت السائق الى أمكنة كنت أعرفها أثناء اقامتي الأولى في اربد، وتوقفت عند حانوت كنت أصرف فيه الدولارات، وتعرف علي أصحابه حالا ورحبوا بي بدف، "أهلا". وبعد الشاي ودعتهم وذهبت الى منزل أصدقاء آخرين تجمعني بهم معرفة قليلة. تناولنا الشاي ثانية وتحدثنا قليلا عما فعلناه في حياتنا في الفترة الأخيرة.

كانت الساعة تشرف على الثالثة حين عدت الى المزرعة. وارتفعت أصداء أذان العصر في الشوارع التي كانت خالية تماما في هذا الوقت ولأن اليوم كان يوم جمعة. كنت ما أزال أبحث عن سيارة حين توقفت سيارة مرسيدس قربي؛ مرحبا الينور! حياني ميشيل خارجا من السيارة ليفتح لي الباب الخلفي. أين كنت؟ كانت أمي قلقة عليك جدا. قلت انك ستتأخرين ساعة فقط. خرجنا لنحضر الكاتو وطلبت منا أن نبحث عنك. بالطبع الوضع آمن جدا هنا، لكن كنا نتساءل ماالذي أخرك. لقد ظننت أنه يجب عليك أن تذهبي الى اربد.

كانت العودة الى المزرعة سريعة بحيث لم أقدر أن أسأل ميشيل عن رحلته وعن عمله في كاليفورنيا قبل أن نخرج من السيارة. ولدى عودتنا كان هناك الكثير من تبادل التحيات والتعبير عن الارتياح بعد ذلك الغداء ثم التحضيرات لزيارة الخاطب. في هذا الوقت رن التلفون بشكل متواصل - الأسرة والأصدقاء يسألون اذا كان ميشيل قد وصل؟ وكم سيمكث؟ كيف غس؟ كيف حال ايفيت وجورج؟ متى سيأتون للزيارة؟

أن تكون بعيدا عن الأصدقاء والأقرباء حتى ولو ليوم واحد، يعتبر هذا في الشرق الأوسط مخالفة جدية للأعراف الاجتماعية.

في الوقت الذي وصل فيه طالب اليد مع والديه وأصدقائه في سيارة بيضاء كان المنزل يعج بالضيوف. كانت مارلينا تثب هنا وهناك تقدم هذا الشيء أو ذاك لشخص ما وتقوم بأشياء معينة بالترتيب.

وبعد الدورة الاولى للتعريف والعرض المسرف للامتنان والترحيب جلس الضيوف على كراسي من نوع لويس فاروق المطلية في غرفة الاستقبال الضخمة. كان العدد يبلغ الثمانية عشرة أو العشرين. قدمت القهوة أولا وشرب معظمهم النسكافية. جلس الجميع بشكل رسمي وأقدامهم تضغط على الأرض بشدة وأجسادهم متصلبة ومنتصبة على الكراسي. كانت مناسبة رسمية. وحتى من الجزء الصغير للمحادثة الذي قدرت على التقاطه والذي كان يدور باللغة العربية لم يقل أي شيء ذو مغزى كما هي العادة في مناسبات كهذه، لأن الجميع كانوا منشغلين بتقييم طرق الحياة، محاولين تمييز شخصياتهم. كانوا يقيمون الثروة والملامح الجسدية وطوال الوقت يبتسمون، يحنون رؤوسهم ويرتشفون المشروبات. وأحيانا كان أحد ما يلاحظ ابتعادي عن الجو ويوجه الي كلمة أو كلمتين أو سؤالا بالانكليزية. لقد ذهب معظمهم الى الولايات المتحدة وبدا أنهم يتحدثون العربية والانكليزية بشكل متكافيء. وبين وقت وآخر كنت أسمع من غرفة "غس" صوتا ضعيفا لا يعبر عن الألم قدر تعبيره عن نوع رفيع من الهدوء ينادي، مارلينا، جورج، ايفيت. وكانت النداءات اما غير مسموعة أو متجاهلة حين سكب العصير والكولا وقدمت الكاتو. كان يوجد بعض النقاش حول تقديم أو عدم تقديم الكاتو. وقرر الأمر بوضوح، من قبل من وكيف ولماذا، لا أعرف. ومرت ساعتان تقريبا قبل أن تقدم القهوة التركية وهذهإشارة أن المناسبة على وشك

الانتهاء. بعدها نهض الجميع وتصافحوا باحترام وتبادلوا الكلام الجميل بما فيه الشكر المسرف في التعبير عن العاطفة والرغبة في أن يشاهدوا بعضهم في أقرب وقت وأن يعتبروا أنفسهم أسرة واحدة. ولم تكن الفوارق دقيقة جدا.

وحالما غادر الخاطب وحاشيته جلس أعضاء الأسرة الذين بدوا أكثر استرخاء ليتحدثوا عن المرشح الأخير ـ رقم عشرين ـ كما أشاروا اليه. وسألت العروس ايفيت: ماذا تعطونه من صفر الى عشرة؟

أجابت عمتها لولو التي كانت لها سمعة بأنها داعرة قبل سن الأربعين: ثمانية. وأجاب شقيقها جورج الذي لم يوافق على أي خاطب: صفر. انه خاسر حقيقي ومدع. ليس جيدا لك يا ايفيت، يقول انه مهندس. هل تعقلين ذلك؟ أي نوع من المهندسين؟ ربما مهندس صحي؟ قالت ايفيت: أنا أعطيه خمسة. يبدو ظريفا رغم أنه مسن قليلا وقصير. نحن أسرة من طوال القامة. ماذا سيفعل هذا بالمورثات ياالبذور؟ إلتفتت الي وقالت: مارأيك به؟

كنت مندهشة من هذا السؤال لأنني شعرت بأن لا علاقة لي بهذه المناسبة. لا أظن أنه يمتلك من المال ما يريدك أن تظني أنه يمتلكه. هذا ماقلته. وكنت قد لاحظت جواربه المزاوجة على نحو غير ملائم وأظافره المقضومة. ولم تكن هاتان المسألتان لصالح الشخص ثم انه قصير أيضا. وسألت: وأنت ياأمي؟

ـ "لا أعرف، أنا مرتبكة ومتعبة. أريد أن ينتهي الأمر ونستقر على شخص ما قبل أن يموت والدك". ولدى ذكر زوجها أسرعت قائلة: "آه ياعزيزتي والدك. لم يدخل اليه أحد منذ مغادرة الضيوف".

اندفعت مارلينا خارج الغرفة تاركة الجميع في جو غير مريح من الشعور بالذنب. وكسر الصمت المتوتر بعد لحظة عويل تصاعد من غرفة غس. آه! آه! آه! لا يا الهي! لا. وعندها عرفنا جميعا أن الأمر انتهى. واحدا بعد آخر ذهب أعضاء الأسرة الى غرفة النوم ورتب كل واحد منهم الموقف الخاص به ليواجه موت البطريق. وكان المزاج خليطا من الراحة والحزن ولم يكن كذلك الذي قابلته على الباب لدى وصولي. وعانق جميع أعضاء الأسرة بعضهم وبكوا في أحضان بعضهم. وحصن الرجال أنفسهم بأن لا يظهروا عاطفة والتفتُ النسوة الى بعضهن من أجل الراحة وأنا، المعتادة على التعامل مع القضايا العملية الضرورية التي يتطلبها الموت غطيت الجسد وبدأت العمل الروتيني بالتدريج. كانت ايفيت هي الأولى التي كسرت الصمت بعد أن بدأ الجميع يفهمون بالتدريج معنى موت غس: "هذا يعني أنه لا داعي للعجلة الآن. أليس كذلك؟. قالت هذا والتفت الجميع اليها غير مصدقين أنها يمكن أن تفكر بأي شيء من هذا القبيل في وقت كهذا فكيف بعد أن صرحت بذلك، ولدى فهمهم لفكرتها وقد خفت حالتهم، عرفوا البركة التي تدعى الموت والتي أزاحت هذا الثقل الصارم عن أذهانهم.

وفي الساعات التي تلت بدأت الأسرة تتحدث عن الترتيبات. ولحسن الحظ وضح غس المسائل وجعل الأمر سهلا للاستمرار وفق رغباته دون شجار حول ماكان يريده أو لا يريده.

وفي حوالي الساعة الثانية ـ بعد سبعة عشرة ساعة على وصولي ـ بدأنا نشعر جميعا وبشكل مفاجيء بتأثير توتر اليوم. كنا جميعا متعبين على حافة الانهيار.

ـ ستبقين من أجل الجنازة. أليس كذلك يا الينور؟ توسلت الي مارلينا بينما كنا جميعا على وشك الذهاب الى النوم. "أحب أن تكوني معي هنا، حاجزا ضد هذه الأسرة". لكنني حصلت على ما يكفيني منها ـ يوم متوتر من أيامها ـ ولا أعرف اذا كنت سأتحمل أكثر". وبقدر ما أمكنني من اللباقة قدمت أعذارا بأنني يجب أن أعود الى دمشق في اليوم التالي بسبب بداية الفصل الدراسي الجديد. وكانت الزيارة تنطوي على أكثر مما فكرت به حين انطلقت البارحة من دمشق ظانة بأنني سأمضي فترة هادئة مريحة مع الأصدقاء القدامى في الأردن.

آلن هيبرد

- يوم العيد -

استيقظت بعد بزوغ الفجر. كان عليها أن تنجز الكثير من الأعمال في ذلك اليوم. أكملت كثيرا من تحضيرات العيد في اليوم السابق، الا أنه لا يمكن أن تنجز أشياء كثيرة مقدما. تركت زوجها نائما في الفراش الى جانب الموضع الذي نامت فيه ذلك اليوم وذهبت الى المطبخ لتنجز الشيء الأول في قائمة أعمالها. حين أخبرها زوجها بالعيد وأنه من المتوقع أن يستضيفوا أسرته في تلك المناسبة قررت أن تحضر ديك حبش بما أنه يوحي بالعطلة وبما أنه أحد الأشياء التي تشعر بالثقة في تحضيره للضيوف.

بدأت تقطيع الكرفس شعرت أنها محظوظة بالعثور عليه وعلى البصل في السوق، وليست هذه هي المرة الأولى التي فكرت فيها ببشاعة هذا المكان الضيق البائس بطاولاته المشمعة وخزائنه الصفيحية البيضاء. ربما كان مناسبا للخدم، لا لزوجة. وعلى رؤوس أصابع قدميها جاهدت للوصول الى الرف الذي وضعت عليه ربطات صغيرة من الأوريغانو والريحان والتي أحضرتها من السوق قبل بضعة أيام. وذكرتها الرائحة المألوفة العالقة بذهنها ببيت جدتها في

"مينيسوتا" حيث كانت تذهب دائما الى هناك في عيد الشكر حين كانت صغيرة. واستهلكت ذهنها صور حية للمعان الأرضية والدفء والروائح الزكية وبعد ذلك تذكرت خافقات البيض والملاعق الخشبية ومبشرات الهيل.

لم تقدر أن تتباطأ طويلا مع الأحاسيس الممتعة التي خلقتها هذه الصور، اذ أعادها لهب البوتغاز الى المشهد الذي حولها. كان هناك دائما مشكلة ولا يوجد تحكم بالحرارة. وحين أقعت على الأرض لتضع عود ثقاب في فتحة الأنبوب المعدني الموصول الى علبة البوتوغاز بخرطوم مطاطي انتابها احساس بأنها امرأة عجوز خبيرة في كتاب "لورا أنكولز ويلدر" تتحمل مصاعب حياة المروج. لكل عصر محاكماته المتميزة ومحنه، هذا ما فكرت به. ومع كل انبثاق ناري كانت تتذكر مطابخ دمرت وأعضاء بشرية قطعت بالاضافة الى الموت. كان الغاز أحيانا يفرقع وينفث اللهب ويهدد بالانفجار. أما الآن فقد اشتعل الفرن بشكل تام. ذهبت الى البراد وأخرجت الطائر. كان يزن سبعة كيلوغرامات. أحضرته من سوق باب العلوق. ذبحوه ونتفوه هناك. أشاحت بصرها أثناء الذبح دون اكتراث وببساطة أخذت العلبة المغلفة من البائع وهي تبتسم قائلة، شكرا، باللغة العربية. ثم وضعتها في حقيبتها التسوقية الزرقاء. عندما أخرجت الطائر من الحقيبة البلاستيكية لاحظت أنهم لم يزيلوا رأسه. هل كانت هذه مزحة أم هذه هي الطريقة التي يتبعونها هنا؟ وسرت ارتعاشة في عمودها الفقري حين نظرت الى الرأس الصغير وفكرت بايقاظ زوجها ـ لكن لا، لا تريده أن يعتقد أنها غبية أو جبانة. وهكذا مصرة على أسنانها، قطعت الرأس وانتزعت الأحشاء الباقية واستمرت في عملها. ولاحظت كم

كانت هادئة هذه المدينة الصاخبة هذا الصباح. عم الضياء بشكل كامل وبدأت الحرارة ترتفع، ورغم ذلك، بدا، كأن العالم كله مايزال نائما مثل زوجها. كان من الصعب في الشهر الماضي أن تذهب الى النوم قبل الثالثة صباحا. حتى الأولاد كانوا يتأخرون في نومهم أثناء الليل وهم يصرخون ويلعبون في الشوارع. ولم تجرب أبدا من قبل تغييرا راديكاليا كهذا للحياة اليومية. بدا كل شيء منقلبا رأسا على عقب. جربت جميع النماذج وحالات الروتين بانتظام في اليوم الأول للشهر المقدس. وبدا أن طبيعة الزمن نفسها تغيرت. أصبح النهار ليلا والليل نهارا. كانت قد سمعت عن رمضان من قبل. رمضان كريم، كما يقول الناس بتوهج دافيء حين يتذكرون التقاليد الممتعة والأحاسيس المرتبطة بهذه المناسبة. مع ذلك، لا تستطيع التشخيصات المسبقة أن تحل أبدا مكان الشيء نفسه. حاولت في البداية أن تصوم الا أنه غشي عليها و انتابها الضعف فنصحها زوجها أن تتوقف عن ذلك. قال لها ان الله غفور ومسامح في هذه الأشياء ويستطيع المسلم الجيد أن يقوم بذلك فيما بعد وقصد بالايمان أن يكون عمليا، الا أنه أصبح متصلبا وغير مرن بسبب أن البشر جعلوه هكذا. واستمرت دوختها رغم توقفها عن الصيام. وكم شعرت بالسخف، حين، وبعد أربعة أشهر كشف الطبيب سبب غثيانها ودوختها. كان يجب أن تعرف.

أشعلت النار تحت الوعاء الذي وضعت فيه الزبدة وراقبتها تذوب وتطش حين دومت المقلاة، أضافت بعد ذلك البصل المفروم والكرفس. حاولت أن تستعيد الاحساس الذي انتابها منذ عدة لحظات - دفء مطبخ جدتها - الا أنها كلما وصلت الى ذلك الاحساس كان يهرب بعيدا. شعرت بثقل العزلة يضغط عليها. لم يكن هذا عيد الشكر،

ولم تكن هذه أميركا. وانكمشت خوفا من فكرة كونها محاطة وهي محطمة، بأسرة زوجها التي بدت ميالة الى تفحص كل جزء من حياتهما.

عندما حركت البصل فكرت كم هي مختلفة ظروف حياتها عما تخيلتها. كيف ستكون حين قررت أن تتزوج أحمد وتجيء الى مصر. لم تمتلك فكرة ثابتة عما سيكون عليه الحال، كانت تأمل فقط وتعرف أن الأمر سيكون مختلفا عن الحياة في أميركا. وربما كان هذا ـ ممتزجا مع تطلعاتها الرومانسية ـ كافيا. وحذرها الجميع، خصوصا والدها، طرحوا الأسئلة على قرارها وسألوها اذا فكرت بعواقبه. قوت جميع التحذيرات التي اعتبرتها انتقادات شخصية تصميمها على أن تتجاوز كل هذا. سوف تريهم. كانت بعد كل شيء أميركية تمتلك نزعات الوقوف على قدميها في وجه السلطة وتقول: لا علاقة لكم بالأمر.

"لا نكهة لهذا"، فكرت وهي ترمي الكرفس والبصل الشفافين في وعاء يحتوي على قطع الخبز. لماذا لا تضيف الزيتون؟ فعلت ذلك. لم تتوقع العزلة ولم تعرف لماذا لم تفكر بها، كانت نتيجة منطقية لهذا الوجود المحطم بعيدا عن الأسرة والوطن.

وكانت النقود شيئا آخر لم تفكر به كثيرا في أميركا، اذ ظنت أنه سيكون هناك ما يكفي وأن أحمد يملك الكثير. ربما جعلها تظن ذلك. ربما كانت ساذجة. وبشكل واضح، تمتلك عائلته بعض النقود. يا للسماء! لم يكونوا فقراء كمعظم المصريين. شكرا لله. ساعدتهما أسرته في الحصول على هذه الشقة، وهذا ليس أمرا سهلا في القاهرة.

ورغم ذلك شعرت بالحرمان. يجب أن يحاولوا العيش على الأربعمائة جنيه المبلغ الذي يتلقاه أحمد شهريا والذي لا يعتبر دخلا سيئا وفق بعض المقاييس. وهذا كان يعني شيئا واحدا أنهم لا يستطيعون استئجار خادمة وكان هذا يعني أنها يجب أن تذهب الى السوق وتنظف وتطبخ، وهذا حجم لا يصدق من العمل في القاهرة المتسخة والغبارية. كانت متوترة عصبيا من كيفية ترتيب أمور الطفل ولاحظت أن المصريين، بينما لا يقيسون كل شيء بالدولار فانهم ينبطحون ويزحفون من أجل كل قرش يمكن أن يصل الى أيديهم. خيب أملها هذا الادراك. كانت تريد أن تؤمن أنهم يجب أن يكونوا فوق كل هذا السعار المادي. من يقدر أن يلومهم، رغم ذلك؟ ربما كانوا يزحفون بجنون لأنه كان يوجد القليل مما يمكن أن يحصلوا عليه. وكان الاقتصاد يبدو على حافة الانهيار كل يوم. وشعرت، كونها في وسط ذلك، أن أشياء كثيرة عصرت منها. واستاءت من ذلك. لم يكن يوجد حركة انتقال هنا. كانت الأسر تعيش في الحارات نفسها لمئات السنين. وخطر لها أن كل شيء ضيق مثل مطبخها الصغير.

وبيد واحدة دفعت الحشوة بلطف عميقا في جوف الطائر ممسكة بجلده الرطب المطاطي باليد الأخرى. كان يوجد الكثير من الحشوة فوضعت بعضها تحت جلدة الصدر وهي خدعة تعلمتها من جدتها وبعد ذلك بدأت تخيط قطع الجلد سوية من جهة الرأس.

قابلت أحمد منذ عامين. حدث ذلك في جامعة ميشيغان في آن آربر كانت صديقتها في السكن قد عرفتها عليه. ووقعت الشابة الرومانسية الحساسة في حب المصري. وتذكرت كم رغبت به أكثر مما رغبت بأي شخص آخر. وتذكرت كم وجدت بشرته الداكنة جميلة وكم أحبت أنفه

المثلثي وتركيبته الجسدية الرائعة ولم يكن يشبه أي شخص سبق لها أن قابلته. وهذا بدون شك ولد الجاذبية.

وخطر لها الآن، ومن وجهة نظرها الحالية كم سيشعر باحساس طاغ من الحرية هناك في أميركا. كان يوجد في مصر قليل من الاختلاط الاجتماعي بين الشباب والنساء. وفي احدى الليالي وبعد وصولها حالا شعرت بالقوة التامة للاختلاف الثقافي. خرجت وحيدة مع مجموعة من الشبان الأميركان ومضى الوقت دون أن تلاحظ ذلك. وأصبحت الساعة الواحدة قبل أن تعود الى المنزل. وحين كانت تقترب من الشقة شاهدت أحمد في الشارع. أوقفها وأصعدها الى السيارة وصرخ في وجهها: لا تفعلي هذا ثانية. ولم تجده مستاء هكذا من قبل. ماالذي حدث؟ ماالذي سيقوله الجيران؟ سيقولون انني تزوجت عاهرة أجنبية. لن أقدر على تحمل الاهانة.

وفجأة شعرت بأنها سجينة. أرادت أن تتحداه، الا أنها شعرت بالضعف الشديد وكأنه جردها من كل قوتها ولم تقدر على استرجاعها. وعرفت بالاضافة الى ذلك أن أي شيء تقوله لن يغير في الأمر. ولم يستطع تحمل ذلك. كانت تلك الثقافة التي تهيمن عليها الذكورة هي التي جعلته يتصرف هكذا ولم تمتلك أية أوهام حيال قدرتها على تحدي مصر.

كان الديك في الفرن. تنهدت بعمق وبدأت تراجع ذهنيا المهمات المتبقية أمامها قبل أن يصل ضيوفها في الساعة الثانية. كانت الحرارة ترتفع. نظرت الى ساعتها. انها العاشرة وأحمد مايزال نائما. ورغم أنها لم تسمعه افترضت أنه استيقظ ليصلي صلاة الفجر ثم عاد الى الفراش.

كانت قد أعدت فطائر في الليلة الماضية. ستعد في النهاية صلصة مرقة اللحم. تمنت لو أنه كان عندها توت بري. وبالطبع لا يمكن تأمينه هنا، كان يوجد أقراص خبز صلبة أحضرتها من "ماريوت" وبطاطا حلوة، والتي كانت في متناول اليد. وكان عليها أن تعد أيضا السلطة والأرز. ستفعل هذا فيما بعد. ستقوم بالتنظيف الآن. كانت قد نفضت الغبار ومسحت الأرض البارحة. لكن خلال الـ ٢٤ ساعة الأخيرة وكالعادة استقرت طبقة من الغبار والسخام فوق كل شيء. وهكذا كان عليها أن تكرر عملها الروتيني الذي كرهته كثيرا. وما جعل الأمور أكثر سوءا أن المرء لا يستطيع أن يحصل أبدا على مواد التنظيف المناسبة في القاهرة. وغالبا ما فكرت أن ما يثير السخرية هو أن المدينة الأكثر حاجة في العالم الى مواد كهذه كانت أقل تزودا بها لمعالجة الأوساخ. كانت المكانس تنكسر والأسطل تتشقق وظنت أن هذا غير معقول.

جميع المعنويات المتعلقة بالمناسبات والتي اخترنتها في مامضى تلاشت نهائيا في وجه العمل الذي يجب أن تنجزه. اغتاظت وغضبت حين فكرت بأحمد وهو في الفراش يتوقع منها أن تنجز العمل الذي كان كله من أجل أسرته. سيكون الأمر مختلفا لو كانت تجهز المكان لأسرتها. وتقوى قلبها للحظة عندما تخيلت كيف سيكون الأمر في تحضير وجبة عطلة لأسرتها. تصورت أخواتها الثلاث وشقيقها وكانت تفتقدهم جميعا شاعرة بالألم الآن وأكثر من أي وقت مضى وهم مجتمعون حول الطاولة نفسها للاحتفال بعيد الشكر. وأحست الآن بأن هذا الغياب، هذه الفجوة جاهزة لاستهلاكها. الى ماذا ستنتهي حياتها؟

حسنا! يجب أن نتابع. تنهدت وبدأت تكنس. ستكنس الشقة كلها

وتمسحها بعد ذلك. وبدون وعي منها تقريبا وضعت في جهاز التسجيل شريطا من مجموعتها الصغيرة المستخدمة وملأتها الموسيقا المتنافرة مع المكان حالا بحس الوطن وعمقت شعورها بالفراغ. وبدأت تكنس وتمسح على ألحان بوب دايلن وجوني ميتشل وجون باين. كانت منفصلة ـ ليس فقط زمنيا بل جغرافيا ـ عن القوى التي أنتجت الموسيقا. وفقدت نفسها في شعور من الخدر. ألحان متنوعة استحضرت أمكنة وبشرا معينين لمعوا فترة قصيرة في ذهنها. وأرادت أن تتمسك ولو بجزء من الاحساس الذي ولده فيها هذا الشيء. ولكن من أجل أن تتمسك به شعرت بأنه كان عليها...؟ وفجأة نسيت هذا الاحساس ولا أهمية للأمر كيف حاولت أن تحلله بصعوبة ولم تستطع أن تتبينه بدقة.

تبعت الموسيقا خطها المنطقي المرسوم. بينما غيرت أفكارها مسارها عشوائيا حين كانت تنفض غبار الأسكفات وأطر النوافذ الجانبية ناظرة الى الزقاق من غرفة السفرة وجدت نفسها ـ كما حدث غالبا ـ تنظر الى ذلك العالم الغريب حولها. واستذكرت السحر الكبير الذي غلفه في بداية وصولها. أما الآن فيبدو غريبا مرتديا المد والجزر المنتظمين للحياة اليومية في كل يوم. كان يوجد بعض الناس في الشارع، الا أنه كان مايزال هادئا. شاهدت العجوز ذات القدمين الكبيرتين التي ترتدي حذاء رياضيا تمشي مستندة الى عكاز والتي حاولت أن تتحدث معها دائما بالفرنسية. واتكأ الأولاد على بعضهم البعض يربتون على أفخاذ وظهور بعضهم البعض مارحين.

تصاعدت النبرات العربية في الجو خالقة مضادا غريبا لأغنية "سبرنكستين" والتي صادف أنها كانت تصدح في هذه اللحظة.

وتذكرت كم شعرت بأنها مراقبة وبأنه حكم عليها من قبل جميع الجيران. وبدوا دائما أنهم يتدخلون في شؤونها وينتقدونها. ولم تتخيل أبدا أنها مناسبة للمكان. وحتى لو كان هذا ممكنا، لم يكن لديها رغبة في أن تكون جزءا من هذه الثقافة. وبدأت تقاومها بوعي محاولة قدر امكانها أن تضعها في وضع حرج.

فجأة وبينما كانت تحاول مسح الافريز فوق النافذة انتابتها موجة من الدوار سببتها حرارة الجو والانهاك أفقدتها توازنها مترنحة على قدميها وبرأس دائخ شقت طريقها الى أقرب كرسي. كان السبب هو الطفل. آه الطفل! وكلما حاولت أن تنكر الحقيقة استهلكت هذه الحقيقة أفكارها. كانت مانزال تجهل أن تنظر الى حملها على أنه بركة أو مأساة. أصبح كل شيء أكثر تعقيدا وأكثر واقعية وصعوبة للهرب. وبدون وعي، وبشكل متكرر، تشكلت صورة الطفل في ذهنها. كانت تتخيله أحيانا ولدا وأحيانا أخرى بنتا وكان دائما لونه أسمر. ودائما كان يبدو أجنبيا. هل ستشعر رغم ذلك أنه ولدها؟ هل ستقدر أن تحبه؟ استطاعت أن ترى أمام عينيها جميع أبناء أختها سعداء وشقرا أعينهم زرقاء وأميركان، سواء أكان فتاة أم صبيا فانه سيكون لزوجها أكثر مما سيكون لها. انه يمتلك الحقوق القانونية، وسوف ينمو الطفل على عقيدة أبيه. وللمرة الأولى في حياتها شعرت بالألم الذي رافق التعرف على الخيار المتعذر الغاؤه، على النتائج الصعبة للقرار النزوي، يعتقد الأميركيون دائما أنهم يستطيعون العودة والبداية من جديد.

كان أحمد مايزال نائما. كانت تريده أن يستيقظ منذ وهلة، والآن صلت كي يبقى في نومه العميق. أرادت أن تكون وحيدة. لم ترد أن تواجهه الآن. وبدأ هيرمان هيرميتس يغني، "أنا مقدم على شيء جيد".

ورفع هذا معنوياتها قليلا، حتى لدى تعرفها على السخرية الكامنة في الأغنية. نهضت عن الكرسي متخلصة من موجة جديدة من الدوار. وأنهت التنظيف في نوبة جنونية رافضة أن تقر بوجود الحرارة أو مشاعر الاستياء. ولدى انتهائها شعرت ثانية بالضعف وبأنها على وشك الانهيار. وقالت لها ساعتها ان الوقت الآن هو الحادية عشرة. وجعلت الحرارة المنبعثة من الفرن والمطبخ المنزل كالجحيم. ولم يعد بوسعها أن تفكر بوضوح. لقد جردت من كل شيء. عليها أن تحصل على الوقت لتجهز نفسها. لكن سيأتي هذا فيما بعد. ماالذي ستفعله الآن؟ كانت قد قررت سابقا اختيار نوعية الصحون التي تحمل نقوش وردة النورتاكي التي أحضرتها معها من أميركا وغطاء الطاولة الدمشقي الذي اشترته في مصر والذي كوته البارحة. لا. لا تستطيع أن تفعل هذا، لأن الغبار وتلك الحشرات الصغيرة والتي ضغطت حيواتها في تلك الفسحة - من الساعات؟ الأيام؟.. سوف تستقر على غطاء الطاولة في الساعات الثلاثة القادمة. تستطيع على الأقل أن تفرش الأرض، وهذا مافعلته. منهكة رمت نفسها على الصوفا وتكومت كالهرة. ماالخطأ؟ كيف تخرج منه؟ آه، كانت أفكارها مشوشة. هل ستكون فطيرة اليقطين جاهزة؟ قررت بعد تردد أن لا تحضر أزهارا لأنها لم تعرف فيما اذا كان هذا يفعل في عيد. وذكرت نفسها بالحصول على فرصة لتكتب رسالة الى أمها حالا. كيف يحصلون على الدولارات ليعودوا الى الوطن؟ هل كانت أحلامها سخيفة؟ كم من الأشياء القليلة التي فكرت بها ستحصل؟ هل حياتها الحالية حلم؟ بدا كل شيء غير واقعي. وكان الأمر وكأنها تركت وراءها ذاتها السابقة وهي الآن تعيش حياة غريبة تماما. ولم تقدر أن تعرف نفسها الآن. وفجأة وجدت نفسها

متضعضعة والساعة هي الآن الثانية عشرة. هل ستكون الأمور جاهزة في الثانية؟ نعم، نعم، بالطبع ستكون جاهزة. أخمن أنني نمت فقط. وبفخر كبير ومتلهفة لتحظى بمديح زوجها أخبرته بما فعلته.

أزعجه شيء ما ولم تحذر ماهو. سألته عن الأمر. تردد وقال: آسف، انه خطأي، كان يجب أن أخبرك. لم أقم بالترتيبات الاجتماعية. وسألت ثانية: ماالأمر؟ قال: الطاولة. يجب أن يتم فصل الرجال عن النساء في الحفل. كانت الأمور تجري دائما هكذا. وفكرت، وهذا سبب للاستمرار في المسألة؟ وفي رأيها، كانت مشكلة مصر الأساسية هي أنه لم يوجد فيها أفكار جديدة منذ بناء الأهرامات. وسألته: حسنا، ماالذي سنفعله؟ وأشار أنه بوسع النساء أن يجلسن في غرفة الطعام التي رتبتها وبوسع الرجال أن يجلسوا في المكتب المكيف على طراريح، حول طاولة النحاس المنخفضة ذات الأرجل المشربية. ولدى تلقيها لهذه الأنباء تحطم تصورها عن عطلة العائلة نهائيا. وسوف تحتك الآن بجميع قريبات أحمد اللواتي لا يتحدثن الانكليزية واللواتي ينغمسن في الثرثرة عن جميع الذين يعرفنهم ولا يعرفنهم. كان هذا، على الأقل انطباعها. كان كل ما تريده الآن - وربما دون وعي منها ولقد خبأت الفكرة طوال الصباح، ربما تلك الفكرة السخيفة جعلتها تذهب (ـ) هو أن تصل عائلتها بشكل غير متوقع وسحري من أجل عيد الشكر. وكم ستحب رؤية أخواتها الثلاث وأخيها ووالدها ويحتفلون بالعطلة كما كان يحدث دائما.

وعندما أدركت سخف رغبتها، تساءلت كم يستطيع زوجها أن يحدس من أفكارها، بالنسبة له قدمت ما ظنته ابتسامة غير مقنعة وذهبت الى العمل محاولة تسوية الأمور.

لم يكن هذا خطأه، كما قالت لنفسها. لقد ولد في هذا الجو ولا يهم كم حاول أحمد أن يغيره، وسيكون غير قادر تماما على فعل ذلك. كانت التقاليد هنا ترزح ككتل من الأحجار الثقيلة على ظهر المرء. واخترقت دعوة المؤذن الى صلاة الظهر كثافة حرارة الصباح، وبما أن اليوم هو الجمعة ويوم عيد كان أحمد مضطرا أن يؤدي واجبه الديني بالذهاب الى صلاة الجماعة في مسجد الحارة. أخبرها مرة أن الصلاة علنا يوم الجمعة كانت من الفرائض التي يجب أن يقوم بها المسلمون لأن الصلاة العلنية تحظى برضا الله أكثر من الصلاة الخاصة.

وفي الثانية عشرة والنصف تجولت لتتكيف مع الترتيبات الجديدة، عثرت على صحون اضافية وأوعية وصحون لصلصة اللحم وتشكيلة المقبلات. اندفعت بعد ذلك الى المطبخ لتكمل تلك المهمات النهائية: - وضع أقراص صلبة من الخبز في السلال، ترتيب الخضار المقطعة في الصحون، خلط السلطة وإعداد صلصة اللحم. وكان لديها ما يكفي من الوقت لتقفز الى الحمام وتتبرج وتمشط شعرها وترتدي ثوبا قطنيا مزهرا ونظيفا.

وتماما بعد أن وصلت الى نهاية هذا المسار سمعت صوت مفتاح يدور في القفل، صرير المفصلات، وقع خطا، صوت اغلاق باب. عاد أحمد من الصلاة. نظرت الى نفسها ثانية في المرآة فرأت وجها يمر في تحول تام أمام عينيها. كانت ملامحها تتلاشى في بئر من الأحزان. شعرت فجأة بانقباض عنيف في معدتها وبدأت تخنق نوبات من البكاء، وأضعفتها قوة بكائها واستهلكت وجودها تماما. استسلمت لنوبة البكاء التي لم ترد أن تضعفها.

ماهذا؟ سمعت صوتا وأحست بيد على كتفها. كانت عيناها مغمضتين، كانت تبكي وهي منحنية ووجهها بين يديها. لم تشعر بقدومه اليها. كانت تهز رأسها غير قادرة على الكلام، دفعت يده بعيدا وخرجت من الحمام. وسألت نفسها، ماالذي سأفعله؟ كيف يمكن أن يستمر هذا؟ دوى جرس الباب. بدأت تمسح دموعها وتهدىء نفسها لترحب بالضيوف.

القاهرة

٢١ أيار ١٩٨٨

أبو نعيم والمتسولة

في كل صباح كان أبو نعيم يمشي بمحاذاة السور الشمالي للقلعة في طريقه الى حانوته في المدينة القديمة مارا قرب امرأة متسولة تجلس على الحاجز الحجري واضعة ولدا في حضنها، مادة يدها متضرعة: كرمى لله اعطفوا على الفقراء. كانت المرأة ترتدي دائما معطفا رماديا يصل طوله الى الكاحل ينتأ من تحته حذاء رياضي مهترئ. كان رأسها مغطى بشال. ولكونه مر قربها مرارا وتكرارا فقد بدأ يعتبرها جزءا من الأشياء مثل شجرة الكينا الكبيرة الجذع والتي كانت تنتصب هناك طيلة عقود عديدة. وشعر أنه مسؤول عن حياة المتسولة كما هو مسؤول عن شجرة الكينا. ولم يفعل أي شيء ليساعد حياة أي منهما الى الآن وبدون شك ستبقى كلتاهما على قيد الحياة بدون مساعدته.

وفي أحد الأيام تغير قلب أبو نعيم. ربما تذكر الواجبات التي يمليها عليه إيمانه خاصة أن شهر رمضان يقترب. ربما بعد الموت المفاجيء لولده انتابه شعور أكثر قوة بالعلاقة بين أم وولدها. ومهما كان السبب، وبينما كان أبو نعيم يمر قرب المتسولة في يوم شتائي مشمس قرر أن

يمنحها كل ماهو موجود في جيبه، وخمن بسرعة أن المبلغ (١٦٥) ليرة واعتقد أن هذا سيكون هبة تنم عن كرم. وبينما كان يضع النقود بهدوء في يد المتسولة اجتاحته موجة من الرضا عن النفس. وتوقدت عينا المتسولة وهي تنهض حاملة الولد بذراعيها لتدعو له ولتباركه بسبب كرمه. نظر أبو نعيم الى المرأة واكتشف عينين جميلتين جدا وتساءل لماذا لم يشاهد هذا من قبل. وربما نتيجة شعوره بالذنب أشاح عينيه.

كان لعمل (أبو نعيم) الناجم عن روح كريمة عواقب لم يتنبأ بها. ففي كل مرة كان يمر فيها قرب المرأة، كانت تتوسل اليه بقوة وتتحدث معه شخصيا وتسأله كيف يتخلى عنها وتخبره كم تحتاج هي وولدها الى الطعام. أزعجت طلباتها أبا نعيم. فبعد أن منحها المساعدة وهو يشعر بالحرية بدأ يشعر أنه مجبر على ذلك. مر قربها أياما عديدة دون أن يعطيها شيئا أو يقول شيئا. واستسلم أخيرا لتوسلاتها الملحة فاستجاب بمثل دمشقي، "اذا كان حبيبك عسل لا تلحسو كلو". أدهشت الكلمات المرأة رغم أنها وبدون شك سمعتها من قبل فقالت له وهو يتجه الى حانوته، "ولكنك لم تقدم لي شيئا يذكر".

وبينما كان يقوم بأعماله اليومية وجد أبو نعيم نفسه يفكر كثيرا بهذه المرأة-وبالطريقة التي يجب أن يتعامل بها معها. كانت تخطر في ذهنه قسرا وهو يجرد سلعه أو ينفض الغبار أو يساعد أحد الزبائن. وبدأ يتساءل عن كيفية حدوث هذا الأمر. كيف استطاعت هذه المرأة التي لم يعرها أي انتباه منذ أسبوع أن تغزو وعيه بقوة؟ وبينما كان يفكر بها في لحظات توقفه عن العمل قرر أنه مسؤول عن هذه المرأة لكنه يجب ألا يمنحها النقود ببساطة. لأن هذا لن يحسن وضعها على المدى الطويل. فقرر أن يقدم لها النصائح كل يوم أثناء عبوره قربها.

وفي كل يوم، عندما يركب الميكروباص من منزله في حي النجارة الى مدخل المدينة القديمة لم يكن يفكر فقط بالأشياء المختلفة التي سيفعلها في هذا اليوم بل فكر أيضا بماذا سيقول للمتسولة. وأضاف هذا البعد الجديد من الحيوية الذهنية بريقا لحياته التي غرقت في الظلام منذ أن توفي ولده.

وفي اليوم الأول قال للمرأة، "اصرفي مافي الجيب يأتيك مافي الغيب". الا أن المرأة أجابته بذكاء، "ضع شيئا في جيبي ياسيدي لأصرفه وسوف أصرفه".

وفي اليوم التالي جاء بمثل يمكن أن يلفت الانتباه الى الوضعية الطبيعية للحياة وسط القيود: "بعمرا شجرة ما وصلت لربا". هذا ماقاله للمرأة عندما عبر قربها وظن أن هذا المثل ظريف وهو مسرور من نفسه.

وبينما كان يعمل جمع خزانا من الأمثال التي خطط أن يستخدم بعضها في الأسبوع القادم:

المكتوب عالجبين لازم تشوفو العين

القرد بعين أمو غزال

بروح عالبحر وبيرجع عطشان

حظ بيفلق الصخر

شحاذ ومشارط.

الا أن الفرصة لم تسنح لأبي نعيم ليستخدم كل هذه الأمثال. وفي

اليوم التالي وبينما كان يقول لها: "المكتوب عالجبين لازم تشوفو العين". أجابت المرأة غاضبة: "لماذا تفعل هذا؟ ماتقدمه لي هو كلمات فارغة. لا أستطيع أن أغذي نفسي وطفلي على الكلمات. هل يريحك هذا؟ هل يشعرك أنك تفعل شيئا من أجلي؟ هل تعتقد أن كلماتك تستطيع أن تغيرني؟ وقف أبو نعيم متأثرا بقوة حجتها. كانت محقة. كان يفعل هذا ليرتاح لا ليقدم لها مساعدة فعلية. نظر الى الطفل وسأل:

- كم عمره؟

أجابت: سنة.

ولأنه لم يستطع أن يميز جنس الطفل بسبب لباسه ومنظره، سألها:

- هل هو ذكر أم أنثى؟

أجابت: ذكر.

فكر بولده اذ بدأ لتوه يتعرف على شخصيته ويحلم به منذ أن توفي فجأة دون أن يمر عام عليه.

- ما اسمه؟

- نعيم

وصاح أبو نعيم مذهولا: نعيم. لا. لا. لا يعقل هذا. لا تمزحي معي". كانت تعابير المرأة جدية بشكل كامل. "هذا هو اسم ولدي. لقد مات فجأة منذ شهر. أشعر وكأنني أمشي وأنا نائم منذ ذلك الوقت. لا أستطيع حتى أن أتذكر ملامح وجهه ولا أستطيع أن أجزم أنه وجد.

جاء دور المرأة لتعبر عن تعاطفها للتاجر: "البقية في حياتك، أعرف ماذا يعني أن تفقد ولدا". وضمت نعيم الى صدرها: "لا أعرف ماذا سأفعل لو حدث مكروه لنعيمي".

أخرج أبو نعيم مائة ليرة ووضعها على معدة الطفل ثم تابع طريقه الى حانوته.

في اليوم التالي وبينما كان أبو نعيم يقترب من المرأة الجالسة قرب شجرة الكينا والتي تعلو خلفها الأحجار القديمة الثقيلة للقلعة بدت وكأنها تنتظره.

- أيها السيد الكريم. من أجل نعيم، من أجل ولدك".

لم يقدر أن يترك هذا يعبر لأن حديث البارحة خلق اتصالا لم يستطع أن ينكره.

- أنت امرأة قوية. لماذا لا تشتغلين؟

- انظر الي. امرأة غير متزوجة مع طفل! لقد ألحقت العار بأسرتي. طردوني من المنزل وطلبوا مني ألا أعود ثانية.. من سيمنحني عملا؟

أجاب أبو نعيم غير مقتنع بما قاله الا أنه كان مخلصا في رغبته بتشجيعها: أنا متأكد أنك تستطيعين تغيير هذا.

- هل لديك عمل لي؟

توقف مستاء. لقد وضعته في موقف حرج وتحدث مبادئه. فقال: حسنا! ان حانوتي صغير ولا أظن أنني بحاجة الى أي شخص". كان أبو نعيم صادقا. كان حانوته ضيقا كدرفة خزانة محشوا بجميع أنواع

الألبسة والأحذية والشالات. وليجعل الأمر قابلا للتصديق بدأ يصف نوع العمل الذي يقوم به.

- لكنك تستطيع بالتأكيد أن تستخدم شخصا ليقوم ببعض المهمات، ليحضر البضاعة أو لينقلها أو ليحضر لك وجبات الغذاء".

كان هذا النوع من العمل يمنح عادة الى ولد وكان لدى أبي نعيم فتى يعمل لديه الا أنه أزعجه بسبب الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها. أجاب أبو نعيم بنعومة، "انه عمل شاق".

- أنا قوية. أستطيع أن أقوم به. كل يوم أمشي من المخيم الى هنا أنا وولدي.

سألها أبو نعيم، كيف أعرف أنني أستطيع أن أثق بك؟

فكرت المرأة لحظة ثم أجابت، سأترك ولدي معك في كل مرة أخرج فيها من الحانوت.

كان هذا كافيا لاقناعه، "سنجرب هذا واذا لم ننجح فسوف ننهي الموضوع. هل أنت موافقة؟

- موافقة.

- عندما أمر من هنا غدا سنذهب الى حانوتي.

فكر أبو نعيم طوال اليوم بالطريقة الغريبة التي انقلبت فيها الأحداث. لم يستطع أن يصدق أنه فعل هذا وبدأ بعد وقت قصير يأسف على قراره الذي لم يبد أنه قرار بشكل كامل. لقد أجبرته الظروف على الدخول في هذا الموقف.

رافقته المرأة في اليوم التالي الى الحانوت مرتبكة. وبالفعل لم يكن يوجد مكان لها فيه فجلست أمام الحانوت في نفس الوضعية التي جلست فيها عندما كانت تتسول. وعبر جميع أصحاب الحوانيت المجاورين بصمت وبدون ارتكاب أي خطأ عن استيائهم مما يفعله أبو نعيم بتبنيه لهذه المتسولة. لن ينتج عن هذا شيء جيد. يمكن أن تسبب هذه المرأة المتاعب. ان وجودها سيؤذي العمل. ماالذي يجري؟ هل أبو نعيم متيم بهذه المرأة؟ كانت جميلة جدا كما لاحظوا ذلك بحسد.

كانت المهمات التي كلف بها أبو نعيم المرأة المتسولة في البداية بسيطة كاحضار الغداء من حانوت الكباب الذي ليس بعيدا أو صرف خمسمائة ليرة أو العثور على لمبة عندما تتعطل واحدة. وعندما برهنت أنها جديرة بالثقة بدأ أبو نعيم يوسع دائرة الاستفادة منها وأعطاها عناوين بائعي الجملة البعيدين وقوائم البضائع التي يجب أن تحضرها الى الحانوت والنقود التي يجب أن تسددها. وفي كل مرة كانت تذهب في مهمة، كانت تترك (نعيم) معه وبدأ أبو نعيم يتعرف بشكل جيد على الطفل على سجعه وابتسامته المتألقة وحركات يديه المعقدة. أمتعه هذا النشاط الجديد فبدأ ينتظر الأوقات التي يستطيع أن يقضيها وحده مع الطفل.

استمر هذا النمط المنعش، غير المتوقع للحياة لمدة شهر أو أكثر. استمر بهدوء حتى أن أصحاب الحوانيت المجاورة بدأوا يخففون من مواقفهم التوبيخية. سمع أبو نعيم أثناء ذلك الوقت المتسولة التي عرف أخيرا أن اسمها "منال" تتحدث عن حياتها الماضية وعن طفولتها في قرية صغيرة تقع في قضاء حمص. هناك أحبت شابا وحملت منه. وغيرت نوبة الحب تلك حياتها بشكل كامل. لم تستطع أن تعود الى

هناك. ولم تعرف ماذا تفعل كما كانت تقول وهي تشكو وتشكر أبا نعيم على الفرصة التي قدمها اليها. "أقسم بالله أنني عرفت بأنني لن أقضي حياتي كلها في التسول".

هذا الترتيب الجديد الذي كان مقنعا لكليهما استمر الى أن جاء يوم أعطى فيه أبو نعيم مئالا آلاف الليرات وعنوان حانوت في أحد الشوارع وطلب منها أن تحضر حزمة من العباءات الرجالية. كان أبو نعيم يثق بها ولم يقلق الى أن مر على غيابها ساعتان. وعندما لم تعد بدأ يتساءل ماالذي أخرها محاولا أن يقرر ما الذي سيفعله. وبعد أن مرت ثلاث ساعات قرر أن يتصل بالتاجر ليرى اذا كانت قد وصلت اليه. اتصل وردوا عليه بأنهم لم يشاهدوها. وبدأ يتساءل اذا كانت قد تعرضت للأذى أو فيما اذا قررت أن تهرب. في هذه الأثناء كان يحمل نعيم ويهدهده ويرد على ثرثرته العذبة التي لا تفسر ويلعب بأصابعه. في تلك الليلة، وللمرة الأولى وعندما لم تعد أمه أخذه أبو نعيم الى منزله.

صاحت زوجته، "ماالذي تحمله بحق الله". كانت مندهشة لأنه لم يخبرها أي شيء عن علاقته بالمتسولة.

أجابها أن اسمه نعيم ثم روى لها قصة الطفل. وكما أحس، قامت زوجته بعد تلقيها للصدمة وبدافع من غرائز الأمومية التي جردت منها بتأدية واجبها الأمومي متلهفة. رددت اسم الطفل بمحبة عندما أخذته منه رفعته الى الأعلى وابتسمت بفرح.

انتظر أبو نعيم أياما وأسابيع عودة أم الطفل وبدأ يستفسر عنها في جميع أنحاء السوق وتحدث مع الشرطة. كان واضحا أنه لم ير أحد المرأة. لقد اختفت. ولا يعرف أحد الا الله أين ذهبت. اعتاد أبو نعيم مع

مرور الزمن على الوضع الجديد. هذا ماكانت المرأة تنوي فعله كما استنتج أخيرا. انها الآن حرة في الذهاب الى أي مكان وفي تأسيس حياة جديدة. أصبح في هذه الأثناء ثانية والداً لنعيم. وتذكر مثلا قاله في ما مضى للمتسولة:

"المكتوب عالجبين لازم تشوفو العين"

- الخالة عزة -

آلن هيبرد

كانت الخالة ايزابيل أو عزة كما كنا جميعا ندعوها الشخصية الغريبة في أسرتنا. وعلى ما أظن، تحتوي كل أسرة شخصية ما مثلها. كانت تجمعني مع عزة قرابة من جهة أمي. كانت أختا لجدي. ترعرعت هي وجدي في مزرعة في "انديانا" التي مررت فيها بالسيارة في احدى المرات لمدة قصيرة في شارع ا-٩٠ بدافع الفضول أثناء رحلة عبر البلاد. تخيلت أنني أقف قرب منزل من منازل مزارع "هوسيير" القديمة المعزولة التي تحرسها أشجار حور طويلة وبأنني أسأل أي شخص يفتح الباب بعد أن أعرفه على نفسي لعله يعرف أي شيء عن أسرتي، الا أنني اتخذت قرارا ضد هذا الأمر ظانا أنهم لن يعرفوا، ثم ماالفائدة؟

حدث هذا عندما كنت في الكلية، اذ كنت أتجول كثيرا لأكتشف طريقي في الحياة. وأنا الآن أبلغ الأربعين من العمر تقريبا، ولم أعثر على طريقي بعد.

دفعتني الى الضياع في نهاية الستينيات، وبداية السبعينيات حفلات الروك واحتجاجات الحرب، ولم أجد أبدا طريق عودتي ثانية. لكن ما أريد التحدث عنه هو الخالة عزة وليس عن نفسي. أنا وهي من الطينة، نفسها مقطوعتان من النسيج نفسه، ننتمي الى الطبيعة ذاتها اذ أنني الشخصية الغريبة في الأسرة كما يقول الجميع. ربما كان هذا سببا وراثيا، كما يحدث في النبات ويعبر في الأجيال، وربما أنا شاذة، حالة نادرة كقطة بستة أصابع أو كتفاحة غريبة الشكل. ربما هذا هو السبب، ربما شيء آخر، لا أعرف.

كانت المرأة الأولى التي حصلت على شهادة الدكتوراه من (ييل) هذا ماتقوله أمي، رغم أنني لا أعرف ان كان الأمر مجرد حكاية. وغالبا ماذكرتني (بويلا كاثر) التي عاشت في البراري ثم ذهبت الى بطرسبورغ حين أصبحت سماء نبراسكا ضخمة جدا وثقيلة. وكان عليها أن تكتب عنها. كانت الصورة القديمة التي أملكها لجدتي تشبه كثيرا صور "كاثر". ليس الأمر متعلقا بالثبات الغامض والمحبب لجميع الصور السوداء والبيضاء لتلك الفترة فقط. لا، يوجد أكثر من ذلك. هناك الشفتان المغضنتان نفسهما، الوجه الخالي من التعابير، الشعر المعقود الى الخلف على شكل كعكة، مخفيا عن البصر، الروح القاسية لامرأة رائدة، ومن أسفل الاطار السفلي للصورة تستطيع أن تشعر بقوة صدرها العارم الذي يندفع الى الأمام في فستانها.

أرسلت الي أمي جميع مقتنيات الخالة عزة بعد أن توفيت منذ عامين، في سن الـ ٩٢ الناضج. قالت مرة أنها تريد أن تصل الى التسعين وبعد ذلك ستستسلم، الا أن هذا السن أتى وذهب واكتشفت أنها لا تستطيع ذلك. على الموت أن يأتي حين يريد. ولم يكن مرغوبا كثيرا هناك...

وتوجد الصور التي وضعتها في مكان ما في صندوق في الكاراج والذي لم أفتحه منذ أن أتيت الى هنا منذ ثمانية أعوام، لأنه لا يوجد مكان لوضع أي شيء ولن أمتلك الطاقة على ادخاله على أية حال.كان يوجد أيضا نسخ من بعض المقالات التي كتبتها الخالة عزة، وكانت تحمل توقيع ايزابيل تكر، الدكتورة. لا أستطيع أن أذكر العناوين بالضبط ولن أخرج الى الكاراج لأتفحص الأمر. ليس في هذا الطقس. أعرف واحدة لها غلاف قرمزي وهي عن الأغنيات في مسرحيات شكسبير أو شيء من هذا القبيل. وبشكل أنيق جدا وقعت اسمها بالحبر الأزرق على الصفحة الاولى ووضعت التاريخ الذي كان ١٩٣٣ .

كان روزفلت رئيسا وهي في سن الثالثة والثلاثين ومن السهل علي أن أتذكر لأنها ولدت مع ولادة القرن. لم نر خالتنا عزة كثيرا حين كنت في طور النمو ربما لأننا كنا في أوروندو على نهر كولومبيا، شرق واشنطن وكانت هي في سويت ووتر على الميسوري، الا أنها بقيت مختلفة عن جميع أقاربي لأنها كانت الأكثر سحرا وغرابة أو ربما كانت الأكثر سحرا لأنها كانت غريبة. كنت صغيرة وكانت كبيرة. كنت أتقدم في السن وكانت تحتفظ بنفس السن. لا منجاة من التجاعيد والشعر الأبيض. لم تحب الأطفال ولهذا لم تأت من أجل عيد الميلاد مع الجدة "تاكر" كما كانت أمي تقول دائما. كانت المرة الوحيدة التي ذهبنا فيها لنراها هي وصديقتها "غريس" حين ذهبنا في رحلة عبر البلاد في القطار لنرى عاصمة الأمة ونيويورك، حدثتنا أمي جميعا نحن الأولاد بقسوة شديدة حوالي ثلاثين ميلا قبل الوصول الى "سويت ووتر" حيث علمت الأدب في كلية صغيرة للنساء. ونبهتنا ألا نركض في المنزل وألا نصرخ ونتشاجر وأن نتذكر أن الخالة "عزة"

ليس لديها أولاد ولا تعرف كثيرا كيف يتصرفون أو ماذا تفعل معهم. ولم يذكر أبدا أي شيء عنها وعن "غريس" ولم أطرح أية أسئلة. كان لدي انطباع أنه من المفترض ألا أفعل ذلك، الا أنني عرفت بطريقة ما. وكما يقال يعرف المرء نظيره.

أحببنا دائما منزلهما في سويت وونر. كان هناك شيء مختلف جدا ومميز فيه. كانت عزة وغريس تتواجدان دائما في الحديقة ربيعا وصيفا وخريفا تزرعان النباتات وتزدرعان وتعشبان وتحفران. واذا نظرت من النافذة سترى قبعة كبيرة وعريضة وفستان كاليكو متماوج يتمايل الى جانب رؤوس الأزهار التي تثقل سيقانها. كان هناك دائما شيء يبرعم أو يتفتح، الكبوسين (أبو خنجر)، زهرة الثالوث، زنبق الوادي، السوسن، الآسنور، الورود، أعشاب من أنواع مختلفة، وكانتا تحفظان موالجهما ومجاريفهما وأدواتهما والأسمدة والمبيدات والقدور والأشياء الأخرى في كوخ صغير خلف المنزل. كان لديهما في الخلف حديقة خضار. كانتا تحضران دائما أنواعا من المخللات والمؤن، فلو نظرت الى خزائن المطبخ لرأيت أوعية مصفوفة فوق بعضها مليئة بالخوخ والحلوى وثمار الكمثرى المقطعة بالاضافة الى المخللات الخضراء الكثيرة واللوبياء.

لم أكن قادرة أن أقول أثناء ذلك ماالذي جعل المنزل مختلفا. أما الآن فأعرف، لم يكن هناك رجال في المكان. أعني رجال يفوح منهم عطر خاص، اذ لا يمكن شم هذا العطر في أي مكان حول المنزل. كان عطر الخزامى يغزو جميع الغرف. كان الجو نسويا نقيا. كانتا تشتغلان كل شيء معا وبهدوء ونادرا ماكانتا تتحدثان، اذ غابت اللهجة الذكورية الحادة التي تقطع الصمت دائما وتخلق توترا يعلق بالمكان كالضمادة،

ولم يكن عليهما أن تغفلا أنواع الأشياء التي يغفلها الرجال كنسيان مسح قدميهما حين تدخلان المنزل أو وضع زجاجات فارغة في البراد أو افتراض أن شخصا ما سيأتي ويغسل الأغطية والمناشف. عاشتا بسلام ولم يزعجهما أحد، أو هكذا بدا الأمر. لكن كيف سأعرف أن أحدا لم يفعل هذا؟ وأتساءل الآن فيما اذا قد فعل أحد ما هذا. أتساءل اذا تورطنا في أي شيء مثلي أنا وفكتوريا هنا في "أوريغون" اعتاد هذا المكان أن يكون حرا - محبا للناس الذين صوتوا "لمكفرن" ودخنوا وأحبوا الحيوانات التي هي على وشك الانقراض. ويعج المكان الآن بفاشيين ذوي رؤوس خسيسة وبلهاء متعصبون وأصوليون مسيحيون يحاولون فرض عقائدهم المجنونة على الجميع عن طريق التهديد والتخويف.

يوجد أعداء لنا في حارتنا. يعرفنا الناس قليلا. نتلقى اتصالات هاتفية في منتصف الليل، نسمع تنفسا ثقيلا وأحيانا صوتا ذكريا مرتفعا وقذرا. غريب! وبعد ذلك: ما تحتاجين اليه يا سيدة هو شيء صلب كبير. من الصعب سماع هذا الكلام. لا أعني فقط اللغة السوقية. أستطيع أن أشتم انسانا كل يوم. الا أن الشيء الذي تريده السيدة مهين، شيء يشعرك بالدونية، يجعلك تشعر بأنك ضيق التفكير ومعرض للأذى حتى في عزلة منزلك، وهذا ما يتقصدون فعله أنا متأكدة، يريدون تخويفك.

وفي بعض الأوقات كان يرجع، بعض الشباب شاحناتهم الى مدخل سيارتنا ثم ينطلقون بسرعة قصوى معبرين عن وقاحتهم وفحشهم وكنت أريد أن أخرج وأصيح بهم الا أنني لم أجرؤ، لأنه يوجد الكثير من البنادق ولا تعرف من يمتلك واحدة، واذا كان لديهم واحدة فسوف

يستخدمونها حالا اذا أغظتهم ولو قليلا. ولهذا لم أعرف ماذا أفعل. فكرت باقتناء بندقية أنا وفيكي. تحدثنا عن ذلك عدة مرات، ولكن حين يتطلب الأمر الذهاب الى مخزن بيع الأسلحة نجد أن هذا ليس من طبيعتي أو طبيعتها. لم أستخدم بندقية أبدا طيلة حياتي ولا أعرف. أن أميز نوعا عن آخر أو أن أذخرها وأطلق النار.

أعترف أنني أشعر بالخوف أحيانا، خصوصا حين أفكر بما حدث لجين. أذكر ليلة أتصال لورا من المستشفى وهي تبكي. ذهبت فورا لمقابلتها. كانوا أثناء ذلك قد غسلوا جين ولفوها بالضمادات الا أن الكدمات والانتفاخات كانت واضحة وتستطيع أن تخمن من أنينها كم كانت غاضبة وخائفة. لم يكن عليهم أن يخبروني بما حدث. رجل لم يقدر أن يتحمل فكرة أنها تفضل امرأة أخرى عليه، امرأة لا تريده أن يمارس معها. لحق بالاثنتين حين غادرتا بار الببغاء الأزرق في بورتلاند.لورا ذهبت بعيدا جين لم تفعل، بالطبع لم يعثروا أبدا على المجرم - هذا اذا حاولوا.

هذا سيكون مكانا جنونيا. لا أعرف ما الذي سنفعله. أنغادر؟ لكن الى أين؟ اذ نحن على الحافة الغربية للبلاد. ان الأمكنة تمتلأ بالناس وهم يعيشون بجوار بعضهم. ربما هذا ما يجعل الناس متوترين وعصبيين، وربما المال، الناس قلقون على وظائفهم، السود والشيكانو يغيظونهم أيضا. سوف يتخلصون منا جميعا وينظفون المكان.

وتساءلت كيف التقيتا وبدأت علاقتهما، أعني غريس وعزة. لا تتطلب المسألة كثيرا، فقط ابتسامة في اللحظة المناسبة، ولا تظن أنها ستقود الى الكثير، وبعد ذلك تقود. رغم أنه ليس دائما عندما تريدها. أعني

عندما ترغب أن يحدث شيء، ولكن ثانية ربما لا تريد بالفعل، لأنك تحب أن تكون حرا. ويأتي الرومانس أولا، قبل أن تعرف الشخص الآخر، عيوبه وعاداته المغيظة.

بدأ كل شيء بالنسبة لي ولفيكي بابتسامة تودد بسيطة وبريئة لم أعرف حتى أنني أفعل ذلك. اشتغلنا سوية في قسم الخدمات الانسانية ولم ننتبه أبدا لبعضنا البعض الى أن جاء يوم الجمعه وسألتني ماذا سأفعل بعد العمل، وعندما قلت، لا شيء، طلبت مني أن أذهب معها. فعلت ذلك وقاد شيء الى شيء آخر، وقبل وقت ليس بطويل سوي الأمر معها. لم يكن لدي الكثير من المال في ذلك الوقت كنت أحاول أن أسدد ديوني وحين طلبت مني اذا كنت أريد أن أسكن معها في نفس هذا المنزل الصغير الذي أسكن فيه الآن فعلت ذلك بدون أي تفكير، ولم أفكر أبدا بأن اقامتي هنا ستكون دائمة.

ولم أفكر أبدا أن هذه المرأة كبيرة بما فيه الكفاية لتكون أمي. حدث هذا منذ ثمانية اعوام. لا أعرف كيف تلاشى الزمن.ولا أستطيع أن أفكر ماذا كنت أفعل في ذلك الوقت بالاضافة الى العناية بفيكي التي تعرضت لسكتة دماغية منذ عامين وهذا هو الذي صرف ذهني عن أي شيء آخر. لم تكن المسألة سهلة. كان هناك الجانب المالي للأمور وبعد ذلك كل العمل. والسكتة لا تخرج الشيء الأفضل في الشخص ولم تكن فيكي امرأة كريمة ومحبة. قبل أن يحدث كل شيء، كانت، والحق يقال، بصراحة حادة المزاج بدون سبب يذكر. أصبحت أكثر انفعالا وغيرة منذ أن تعرضت للسكتة ولم تتحمل خروجي لأكثر من بضعة ساعات أو أن أقضي عطلة.

كان لدي أصدقاء في الماضي، أما الآن، حين لا يكون هناك ما أفعله في المساء وتكون لدي رغبة بالخروج أحاول أن أفكر بمن أتصل. أتذكر أصدقاء أعزاء وقدماء ومع ذلك مر وقت طويل قبل أن أرى حدا منهم وسيكون غريبا أن أتصل بهم. أعني ليس هذا مثل البقاء على اتصال مع شخص ما على أساس منتظم حين لا يكون عليك أن تمضي الكثير من الوقت في تذكر ما حدث في الأعوام الستة أو السبعة الأخيرة.

أمضت عزة الـ ١٥ عاما الأخيرة مهتمة "بغريس" التي أصبحت طريحة الفراش بعد أن تعرضت لسكتة دماغية. ذهبت لزيارتها عدة مرات بعد أن خرجت من الكليه أثناء حرب "فييتنام". اعتقلت مرة لأنني جلست على سكة قطار وقطعت طريق قطار يحمل قنابل للاستخدام في الحرب. اعتبر هذا انتهاكا للقانون.

أمضيت ليلة في السجن مع مجموعة من الأصدقاء وكان علي أن أدفع غرامة مقدارها (٥٠) دولارا. كنت راديكالية في ذلك الوقت وملتزمة. أما الآن فليس لدي الوقت أو الطاقة للاهتمام بالقضايا الاجتماعية. وفي ذلك الوقت كنت أفعل كل ما كان علي أن أقوم به في المنزل. كنت منهكة وفكرت أن أدخل في حملة ضد التمييز السكني. الا أنني لم أفعل ذلك أبدا.

تحدثت أنا والخالة عزة عن أشياء كثيرة. لم أعد طفلة. أعتقد أنها كانت مندهشة لرؤية كيف كبرت وأي نوع من النساء أصبحت. تحدثت عن مهنتها وعن الأسرة والسياسة وعرفت أنها كانت نشيطة في شبابها في نضالها من أجل حقوق المرأة. وهكذا فعلت غريس كما قالت.

واشتركنا في ذلك. تحدثت عن عشاقي أيام كان عندي عشاق وأصغت بانتباه وربما لمحت أيضا الى أشياء أخرى. على أية حال شعرنا بالراحة بدون حاجة إحدانا الى الأخرى، وكنا قريبتين جدا بدون أن نكلف أنفسنا عناء الحديث عما كان أكثر أهمية بالنسبة لكلينا. واستطعت أن أخمن كم كان الاعتناء بغريس، عبئا عليها، تحدث الجميع في الأسرة عن ذلك قائلين انها ضحت كثيرا من أجل تلك المرأة دون الحصول على أي شيء بالمقابل. والآن أفهم هذا أيضا. لم يكن أحد من أسرتي متعاطفا معي منذ أن تعرضت فيكي للسكتة ، ولن يحدث شيء من هذا القبيل لو تزوجت.

اهتمت عزة لمدة خمسة عشرة عاما، بهذه المرأة التي يمكن أن تكون قد أحبتها أولا بسبب الاخلاص والاحساس بالواجب والحاجة الانسانية للاعتناء بالآخر. وطوال ذلك الوقت ربما لم تفكر بما سيحدث بعد أن ينتهي كل شيء، بالمسائل العملية مثل المال والثروة. وحين ماتت "غريس" أخيرا أصبح كل شيء تمتلكه بما فيه المنزل الذي كان مسجلا باسمها ملكا لابنتها والتي أنجبت من زواج سابق تم منذ مدة طويلة. ولم تبد الابنة أدنى اهتمام بأمها أثناء مرضها. وطوال ذلك الوقت كانت الخالة عزة تعتني بها. أي امتنان؟ دهشنا جميعا وصدمنا. لقد أخطأت التصرف في أنها وضعت كثيرا في المكان لتبقى بلا شيء. حسنا! سمحت الابنة لعزة أن تعيش وحدها في المنزل طالما هي قادرة على العناية به وبنفسها. لكنني أستطيع أن أتخيل الأذى والاستياء رغم أنني لم أشاهده أثناء ذلك الوقت كنت في ورطة ولم أقدر أن أفكر بأي شيء ما عدا مشاكلي.

أنا الآن في نفس الموقف أعيش هنا مع فكتوريا البيت مسجل باسمها. كانت تمتلكه قبل أن أنتقل اليه. ولا أمتلك حقا قانونيا لأفعل

أي شيء رغم أنني وضعت الكثير فيه وقلبي ويدي كنا ننجز كل شيء سوية منذ أن انتقلت شذبت أشجار العليق وبنيت كوخا خلفه لحفظ الأدوات وحاصدة المرج زرعت بستانا في شرق واشنطن يحتوي جميع أنواع الأشجار فكرت بمناقشة الموضوع معها ولكن لا أعرف أي نوع من ردة الفعل ستنتابها. لماذا تفكرين بموتي؟ ألهذا جئت الى هنا؟ لتأخذي المكان؟ في السابق كانت تغتاظ من مغادرتي وتغار وتجعلني أشعر بالذنب في أي وقت أقوم فيه بأي شيء لا تحبه. وهكذا سيذهب كل شيء الى قريب بعيد لا أعرفه. أراهن أن هذا سيحدث. لا أعرف لماذا أفكر بكل هذه الأشياء الآن. ربما شيء في الطقس جعلني أفكر بالخالة عزة. انه الخريف. بدأت الأمطار ولن تتوقف الى أن يأتي الربيع. انه وقت للاختباء وللف الغطاء جيدا حول الجسد. لا أستطيع أن أفكر بأي شخص آخر الآن.

لا يمكن الخروج في هذا الطقس البارد. لا أمتلك طاقة للبحث عن عمل جديد أو لأفكر بما يمكن أن أفعله. ليس الشتاء وقتا للرومانس حين نكون مغلفين بثياب طويلة وسترات ومعاطف قطنية سميكة ونبقى مع أنفسنا. ولا عجب أن يكون هذا فصل الانتحار في الشمال الغربي. البعض لا يفعلون ذلك في الشتاء. علي فقط أن أستقر وأنتظر الموت أو الربيع.

ـ الرحلة الأخيرة ـ

آلن ميبرد

ماأزال أشعر أنني مسؤول عن كل ماحدث. حين أذكر هذا للناس يؤكدون لي أنها لم تكن غلطتي وأنه لم يكن بوسعي أن أفعل شيئا وأن ماحدث كان خارج سيطرتي. على أية حال في تلك السلسلة الطويلة المتشابكة من الأسباب والنتائج كانت متطلباتي هي التي حركت التعاقب الأخير للأحداث. لقد كنت السبب الوحيد لقيام الرحلة.

كان شريط الأحداث يدور في ذهني بشكل متواصل. وافق أبي أن يوصلني البارحة الى المطار ولم يطرح أبدا أي سؤال لأن الطريقة الوحيدة للذهاب الى هناك هي السيارة. تساءلت قليلا عن بصره الذي تدهور منذ أن رأيته في المرة السابقة الا أنني لم أقل شيئا. لم أرد أن أشكك بتقديره بالاضافة الى أن القيام بخطط أخرى سيكون مرهقا ومكلفا.

كان موعد اقلاع الطائرة الى د.س الساعة الحادية عشرة والنصف لهذا كان علينا أن نغادر المنزل في حوالي التاسعة. عندما ذهبت الى المطبخ في ذلك الصباح بعد أن استحممت وحزمت حقائبي كانت المائدة قد أعدت ووجبة الحبوب جاهزة. استيقظت باكرا على الايقاع المألوف لقدمي أمي السريعتين ولصلصلة الغلايات والأوعية. ورغم أن والدي انتقلا الى المنزل بعد أن ذهبت الى الجامعة كانت طبقة أصوات الغلايات والأوعية وجرسها وهي ترتطم ببعضها هي نفسها التي كنت أسمعها حين كنت طفلا.

فتحت أمي الباب الخلفي لتنادي والدي الذي كان كالعادة مايزال في الحديقة يقوم بأعماله الروتينية الصباحية المبكرة. وسمعت حالا الصوت المرتفع لبوطه المطاطي وهو يمشي على الدرجات الخشبية محاولا أن ينفض الندى والعشب عنه. قال بمرح ممين: "صباح الخير يافورست". "سوف نفتقد وجودك هنا". وأجبت بنفس الحميمية: "كان رائعا وجودي هنا".

كان الصباح رطبا وهادئا وباردا الى درجة أنه في الثامنة والنصف كانت الغيوم المنخفضة مانزال تتبخر فوق البحيرة الصغيرة أمام المنزل وتجري ملتفة كالدوامة فوق جذوع أشجار التنوب والأرز في "دوغلاس" على جانبي المنزل. والى الشرق كان جبل اندكس مرئيا للخيال وذلك بعد أن يبخر الطبقات الكثيفة للغيوم التي تحجبه عن البصر. كان يوما مثل تلك الأيام الشمالية الغربية حين تفكر باشعال الموقد ولا تخلع كنزتك أبدا.

غادرنا في الموعد المحدد. بدأ الحديث - أو بالأحرى المونولوج

لأنني لم أتحدث كثيرا رغم محاولة أبي الدؤوبة لانتزاع الكلام مني - حالما انطلقنا في السيارة: "أنت تعرف. كنا محظوظين جدا عندما كنا نملك سيارتين يمكن الاعتماد عليهما. أذكر حين كان لدي سيارات تتعطل دائما. دائما ينقطع حزام المروحة، يرشح المحرك، أو تنفك الوصلة. دائما يحدث شيء ما. الآن لدينا هذه "الهورنت" انها جيدة جدا واحدى أفضل السيارات التي صنعتها "أميركن موتورز" على ما أعتقد. والبيك آب من نوع "تويوتا" التي يقول عنها "بد جلبرت" انها أفضل انجاز ياباني.

أصبحنا حالا على الطريق الرئيسية التي تمر عبر البلدة. ورغم أنني لم أعش فعليا في المنطقة كنت أزور والدي بشكل متعاقب بما يكفي لجعلها مألوفة لي. كان عادة والدي أن ينتقد كل شيء يراه على طول الطريق وكان هذا يزعجني كثيرا حين كنت في طفولتي أسافر مع الأسرة في السيارة عبر الامتدادات الواسعة البليدة لهذه البلاد.

"سوف يمهدون هذا الجبل. بنوا في البداية هذا المخزن الجديد. أعتقد أنهم يدعونه المخزن العملاق. لا أعرف لماذا يظنون أنهم بحاجة الى مخزن آخر في البلدة". كان يتحدث دائما "عنهم" وعن "هم" وكأن قوة أو مؤامرة خارج سيطرته كانت مسؤولة عن كل شيء يحدث حوله.

وتابع كلامه قائلا: هل ترى تلك الطاحونة في الأسفل. أراهنك على أي شيء أنك حين تعود ثانية لن تلمحها. سيسيطر عليها أحد المستثمرين ويبني مكانها مطعما للطعام السريع. كانت المشاهد العابرة تولد تعليقات أخرى كلما تابعنا التحرك، لقد تغيرت ملكية هذا المكان منذ أن كنت هنا

في المرة الأخيرة. كان مكانا لصناعة القوارب الطويلة النحيلة والقوارب العريضة أنا آسف لرؤية هذا المكان بلا عمل لا أعرف أي تغير سيطرأ عليه الآن. ان البشر يتحركون في حشود من كاليفورنيا محاولين ايقاف هذا، لكن لا أعرف كيف سيقدرون على ذلك. انه واحد من تلك الاجراءات التي لا يمكن السيطرة عليها على ماأظن. لم أتوقع أبدا أن يطرأ شيء كهذا على المنطقة. كان علي أن أتوقع ذلك الا أنني لم أفعل. وبما أنني متقدم في السن كل شيء يحدث يجعلني سعيدا. لا أعرف ماذا سأفعل لو كنت في مكانك.. آسف يافورست لا أقصد أن أوقع الكآبة في نفسك.. هذا هو الأمر.. يجب أن تمتلك الأملْ على أية حال.. لا يوجد مفر.

ورغم أنني وافقت على تنظيراته الفلسفية لم أقل شيئا. كنت أشعر دائما بالتردد في الموافقة لفظيا على مايقوله والدي. ربما كان السبب هو أنه يعرّي الأشياء ويفضحها فيصبح من الصعب النظر اليها. وقليلا ماكان يبين الاختلافات.

كنا قد انحرفنا الى الطريق التي تؤدي الى "سياتل" وعبرنا اصلاحية أحداث الولاية.. "يوجد أربعة سجون هنا الآن. واحد للأشخاص القذرين وواحد للأمراض العقلية وواحد للاساءات الأقل خطرا وهناك سجن المزرعة ان المكان مليء. يجب أن يسجن كثير من الناس الا أنهم أذكياء بما يكفي أو أغنياء بما يكفي ليبقوا خارج السجن مثل ذلك الرئيس الأخير وجميع أصدقائه الفاسدين.. انهم الأشخاص الذين يجب أن يسجنوا. انهم هم الذين يغتصبون ويقتلون هذه البلاد. أظن أن أيلا قتل على الطريق. هل رأيت بقعة الدم على الطريق؟ الا أنني لم أشاهدها.

قطعنا نهر "سنوهومش" الذي كان عريضا وهائجا عند نقطة العبور:
"لم أذهب الى النهر هذا العام. ان المياه تنخفض كثيرا الآن وعلى الأرجح لن آتي هذا العام. يوجد أمكنة كثيرة أريد أن أذهب اليها ثانية اذا كان بوسعي ذلك قبل أن يدب الضعف في قدمي. أحب أن أذهب الى بحيرة ليمان ثانية. وبعد ذلك أريد أن أذهب الى بحيرة "بيانكا". لا أظن أنك ذهبت الى هناك؟ أليس كذلك؟ أظن أنها احدى أجمل البحيرات في "الكاسكيدز". وأريد أن أتسلق جبل القديسة هيلين ثانية.

لم أذهب الى هناك منذ أن حدث الانفجار البركاني. أعاني من مشكلة العثور على شخص يذهب معي. انهم بالنسبة لي اما مسرعون واما مبطئون. بالتأكيد لا تريد أن تمكث أسبوعا آخرا ونقوم بنزهة يافورست؟

قال ضاحكا حين عبرنا مابدا مثل منشار دائري متوحش مثبت الى ذراع مرن حول جذع الى جانب الطريق: ماذا تفعل تلك الأداة الغريبة الشكل؟ لم أر مثل هذا من قبل. يبدو وكأن لديهم مشكلة في تشغيله. لم يبد الأمر هكذا بالنسبة لي فقلت: "أظن أنه من أجل قطع الأشجار اليافعة على جانبي الطريق".

"تحدثت أنا وأمك عن المزرعة وتساءلنا اذا كان أي واحد منكم مهتم بها. نريدها أن تبقى مع العائلة وظننا أنه بما أنكم خططتم لحياتكم في أمكنة أخرى لن يناسبكم الأمر. انها مزرعة ظريفة. أكره أن أدعها تذهب وخاصة بعد أن أصبحت الأرض نادرة وغالية الثمن. لقد قمت بأعمال كثيرة فيها. لم يكن يوجد شيء هناك حين اشترينا المنزل، أما الآن فيوجد المنزل والمدخل الخشبي الممتد في البحيرة

والكرمة وأشجار التفاح والكوخ والحديقة. لن نقدر أن نعتني بها لفترة أطول. وحالما نُباع ستضيع. مارأيك يافورست؟ لا أعرف ماالذي ولد هذه الفكرة. لقد كانت على الأرجح الفكرة الرئيسية على الجدول الذهني، التي قرر مسبقا أن يتحدث معي عنها وكان لتوه قد وجد الوقت المناسب لطرح الموضوع. كان هذا هو الموضوع الذي صمم أن يتحدث عنه. وأذكر أنني استخدمت أكثر من جملة مستجيبا له. قلت له انني أرغب لو كان بوسعي أن أستلم المزرعة لكنني أعيش وأعمل الآن في د.س. ولا أعرف متى أعود الى واشنطن. لقد بني عملي حول أنواع من الأنشطة التي تزدهر في عاصمة الأمة. قلت له انني أرغب جدا في الحصول على أرض في البلاد، في الحصول على مكان أستطيع أن أدعوه منزلي، وأضفت بهدوء، كان هذا الحلم يبتعد عني كل يوم وكانت قيمة الأرض ترتفع وأصبح من الصعب العثور على مكان مفتوح. لم أستطع أن أخبره بوضوح أنني لا أستطيع أبدا أن أعيش في المنزل القديم، لأنني اذا وضعت يدي على المكان فسوف أهدمه وأبدأ من جديد. وسألني: أين ترغب أن تعيش لو كان لديك الخيار في هذا؟ "في فرنسا أو اسبانية أو البرتغال. على الأرجح في البرتغال. لم تعد اسبانيا كما كانت".

- انهم يعانون من المشاكل هناك أيضا.

- أعرف ذلك، غير أن الفرق هو أنني لا أعرف بالضبط ماهي. هنا أعرف المشاكل جيدا وأهتم كثيرا بالبلاد. انها بلادي أو اعتدت أن أعتبر أنها كانت كذلك. ويمرضني الآن حين أرى ما يحدث لها". وتمنيت نوعا ما لو كان والدي يمتلك القوة لتحقيق أحلامي. ربما كنت قاسيا عليه جدا، ربما كانت توقعاتي عظيمة جدا.

استمر هذا الحديث وفترات الصمت الفاصلة مسافة طويلة عبر الطريق (٤٠٥) مرورا "بلغيو" وأثناء عبور "رينتون"، وغالبا ماكنت أنظر من نافذة السيارة وأفكر بأشياء متنوعة، كيف كانت الأمور حين عشت في المنطقة وأنا طفل وكيف كنت في الثانوية وماذا أفعل الآن والى أين أذهب وفيما اذا كنت سأعثر على عالمي الرومانسي أو على أحد أستطيع أن أعيش معه بسعادة. وأتذكر كيف نظر الي والدي وكأنه يريد أن يسألني عما كنت أفكر فيه وقرّر بعد فترة عكس ذلك لأنه يعرف أنه لا يوجد فائدة. لم أخبره شيئا يذكر عن الأشياء التي تهمني أكثر. وعندما عبرنا "لونغارسيس" تذكرت جميع المرات التي ذهبت فيها الى مكان السباق في صورة مركبة واحدة: قضاء الأيام في مكان السباق، دراسة الأشكال المتسابقة، الاستغراق في المشهد، الخيول الأصيلة، جبل "رينير" في الخلفية. أشك اذا كان والدي يعرف أنني ذهبت الى مكان السباق. لم أخبره أبدا لأنه كان يشجب القمار دائما ولا أعتقد أنه استطاع أن يستوعب جماليات المكان.

"انها فتاة جميلة"، قال مشيرا الى فتاة شقراء الشعر ترتدي نظارات شمسية تقود سيارتها على الخط اليساري. عندئذ وكأنه يريد أن يتأكد أنني لم أسيء فهم تعليقاته سأل: مانوع السيارة التي تقودها؟ جيب؟ انها مدهونة بلون فضي جميل. انهم يمتلكون خيالا حقيقيا هذه الأيام. أتذكر أيام الحرب العالمية الثانية حين كانت سيارة الجيب قوية وعملية". قلت: انها سوزوكي لأمنعه من سرد احدى قصص الحرب العالمية التي كان دائما يرويها وكأنه يفعل ذلك للمرة الأولى وكأن أحدا لم يسمعها من قبل.

وبما أننا اقتربنا من الوصول شعرنا بضغط توقع نهاية محددة

لحديثنا وشعرنا بضغط الوقت كما يحدث في الدقائق الأخيرة الحاسمة لمباراة بكرة السلة فاندفعنا لنقدم آخر ما عندنا. والآن ماهي الأشياء التي لم نتطرق اليها؟ أعادني الى الحديث عن المنزل وعن المزرعة. سألني، متى تغادر طائرتك؟ متى تصل الى د.س؟ ستصل خلال ثلاثة ساعات، أليس كذلك؟ هل تسافر في طائرات "ناسيونال" أم "دلتا"؟ أية طائرة هي؟ ماالذي ستفعله حين ستعود؟ لم يسألني أبدا اذا كان هناك فتاة تنتظرني. يمكن أن يحرج هذا كلينا. عرفت أنهم يريدون أن يعرفوا. وكانوا يعرفون أنني سأغير الموضوع. كان هذا سهلا وأظن أنني نسيت لوهلة الى أين أدى هذا كله. وجاءت المكالمة حوالي العاشرة والنصف بالتوقيت الشرقي بعد حوالي ساعتين من وصولي الى المنزل وبعد أن فصلت الثياب النظيفة عن المتسخة ووضعتها في الخزانة وصبّبت لنفسي كأسا من الكحول الذي كنت متعطشا اليه كثيرا لأن والدي لا يشربان وبعد أن فتحت بريدي وبدأت أفكر بأعمال الأسبوع القادم.

"فورست"؟ كان هذا صوت أمي وقد احتوى رعشة مميزة سريعة أوحت بشيء مأساوي. عرفت ماحصل نوعا ما قبل أن تخبرني. "والدك.. في طريق عودته من المطار.. تماما وراء رينتون". وهنا انفجرت في البكاء، وللمرة الثانية في حياتي فقط شهدت هذا فيها. "أمي.. ما الأمر؟ ماذا حصل لأبي؟" ببطء، وبصوت تعثر عند كل خطوة أخبرتني بالقصة. لم ير المقطورة الثانية لشاحنة مزدوجة كبيرة قبل أن يغير الخط. وقالت انها لم تصل الى المستشفى في الوقت المناسب لتراه حيا. عزّيتها قدر استطاعتي وأخبرتها أنني سأسافر في الطائرة التي ستقلع في الصباح.

كانت رحلة العودة مختلفة عن سابقاتها. شعرت بأنني الشخص الذي مات. مترنحا. وبدون تفكير قمت بجميع الأعمال، تاكسي الى المطار، شراء بطاقة، التدقيق، الدخول الى الطائرة. لم أعرف كيف فعلت هذا عندما فكرت بالأمر. أتذكر أنني ظننت أن كل من رآني فهم في الحال ماحدث. كان الناس في الطائرة يبتعدون عن طريقي ليفسحوا مجالا لحزني. لم أعرف ان كنت محتاجا الى العطف الى أحد ما يسألني ماالذي حدث، اذا كنت على مايرام، أو اذا أردت أن أبقى وحيدا في حزني. ولقد عانيت في الرحلة من الرؤى المخيفة للحادث. رأيت الحطام وكأنني كنت أراقب بعيني المفتوحتين الأحداث الحقيقية للعالم الخارجي. رأيت بوضوح "الهورنت" تصطدم بالشاحنة الكبيرة، سمعت صوت المعدن وهو ينسحق وصوت تبعثر الزجاج المتكسر. والأسوأ من ذلك أنني رأيت والدي في قميصه المائل الى الصفرة والمربع النقش وفي الثياب الخضراء الفضفاضة التي ارتداها في ذلك الصباح مشوها في الحطام والدم ينزف من جبهته ومعدته مفتوحة. لم أرغب أبدا أن أعرف ماحدث بالضبط. لم أسأل أبدا عن تفاصيل محدده. ربما كان علي أن أفعل ذلك. فبدون معرفة ملموسة يخلق الخيال رؤى وحشية كثيرة للحادث. كانت الشاحنة تأتي أحيانا من جانب وأحيانا من جانب آخر. وكنت أرى أحيانا السائق الآخر، وأحيانا أرى الجسد ملويا بطريقة وأحيانا بطريقة أخرى. وكنت أحيانا أراهم يخرجونه وأحيانا لا أرى ذلك. وكلما كنت أشعر بالشفقة على الذات كنت أفكر كيف ستعاني أمي وهي تفكر ألف مرة في اليوم بكونه حيا وبكونه ميتا. لم أستطع أن أتحدث مع شقيقتي الاثنتين اللتين قدمتا لحضور الجنازة. عانتا

من موته وعانيت أنا من ذلك ومن الشعور بالذنب بأنني ارتكبت جريمة دون قصد مني. شعرت أنهم وجهوا الي اللوم حيال ماحدث ولا شيء مما سيقولونه سوف يزيل شعوري بالذنب.

وفي نقطة محددة يحدث كل شيء كما يتوقع المرء. وبعد ذلك وبدون سابق انذار يختل كل شيء ولا تعرف السبب أبدا مهما حاولت ذلك وحتى حين تفكر أنك قريب وأنك تقريبا تفهم، لا شيء يمكن أن يفعل ليغير مجرى الأحداث الماضية.

أنا أحاول أن أفسر الخاتمة. فكرت بها مرات كثيرة الى درجة أنني لا أعرف فيما اذا كانت واقعية أو فيما اذا كانت مجرد شيء يمر في ذهني ويتكرر الى درجة تقنعني بصدقها.

"شكرا لك لأنك أوصلتني الى هنا". قلت له ذلك حين وصلت الى المطار. "لا حاجة لأن تنتظرني حتى تقلع الطائرة. سيتكرر الأمر نفسه". قال لي، كان ظريفا وجودك معنا. ننتظر أن نسمع صوتك قريبا. فكر بالأمور جيدا. نحب أن تعود الى الشمال الغربي. وكما أذكر، كان هذا آخر كلام تبادلناه بيننا، كانت هذه كلماته الأخيرة بعد الرحلة الأخيرة. أتمنى لو أنني تحدثت معه أكثر من ذلك، أظن أننا دائما نتمنى هذا في النهاية.

الفهرس

